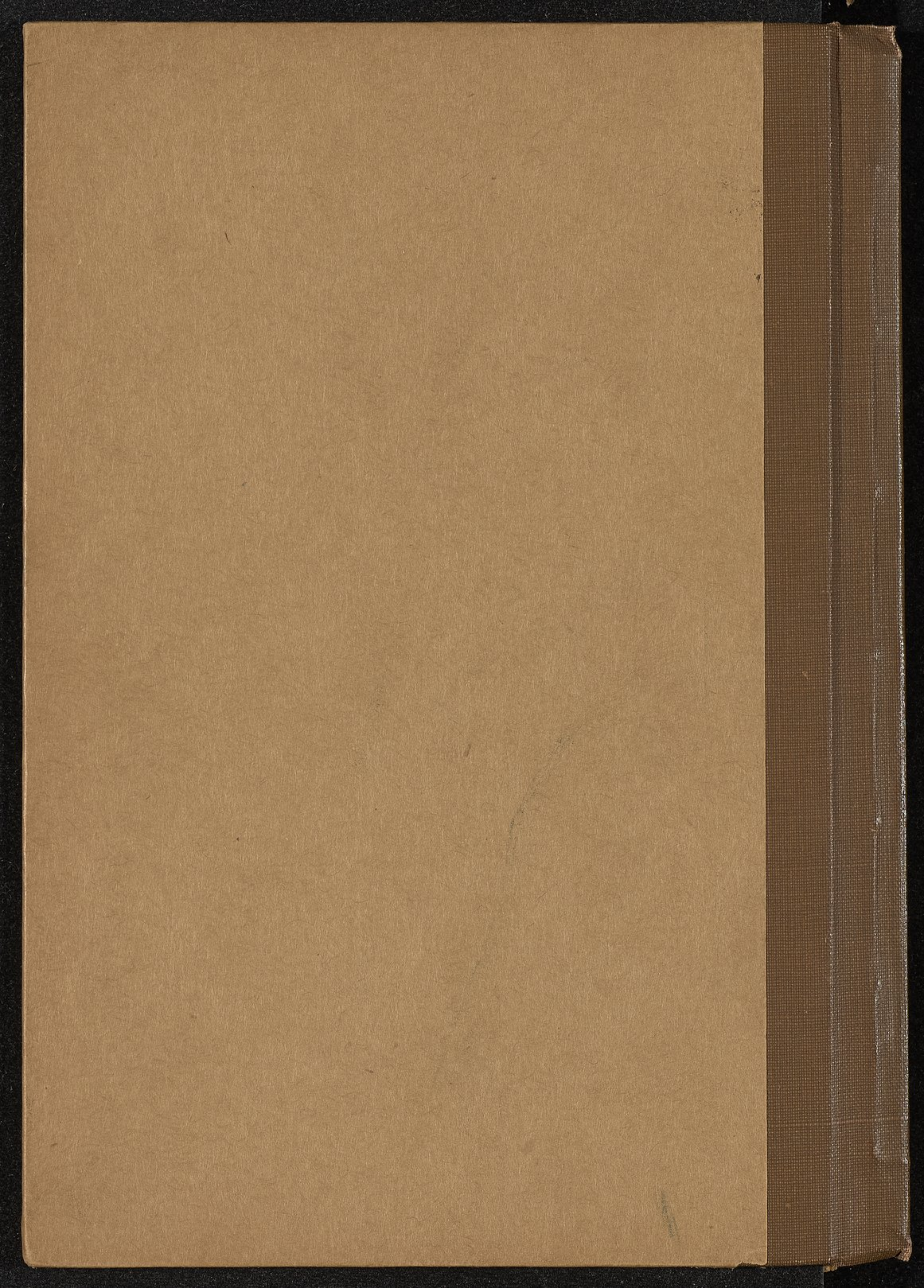
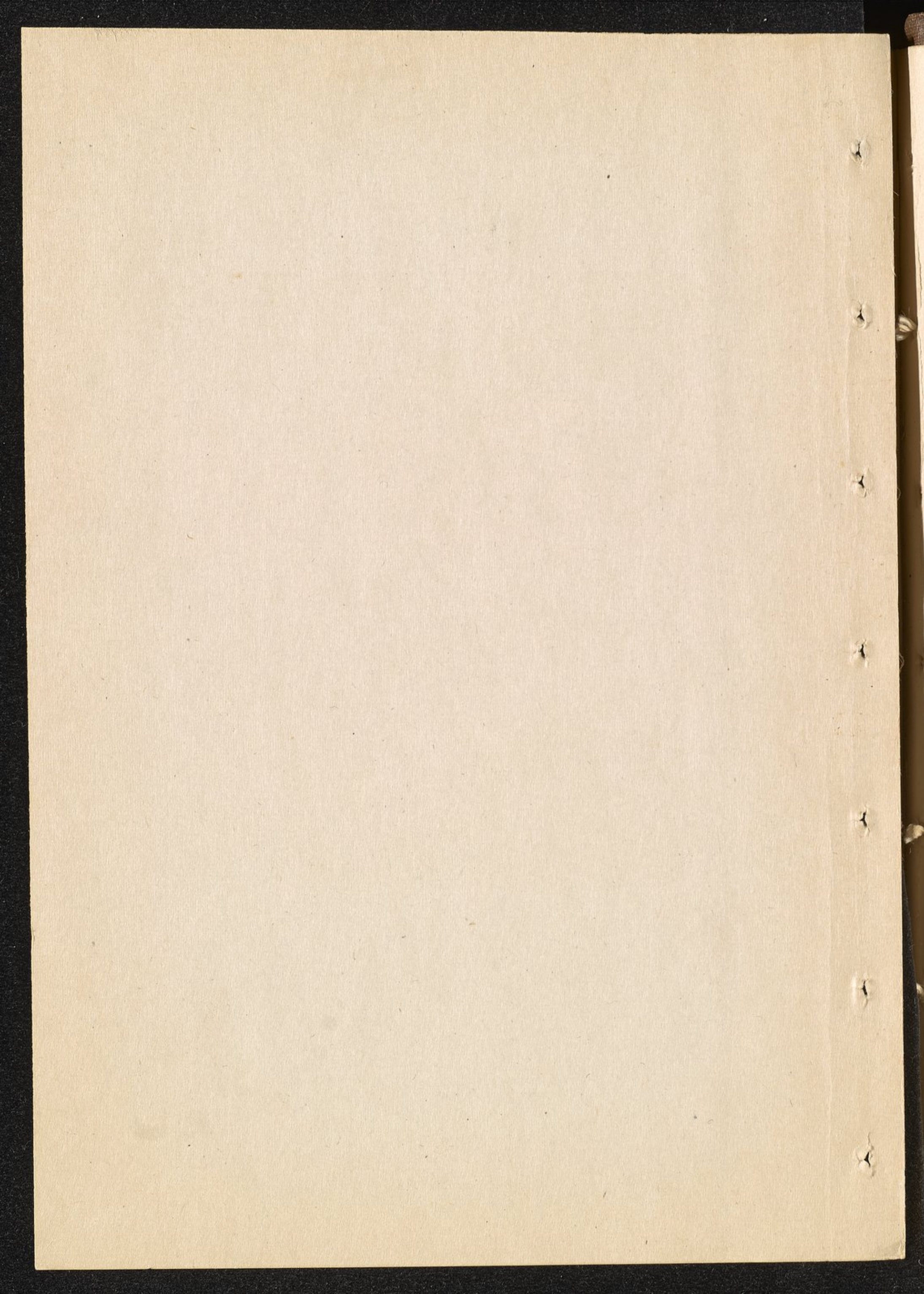
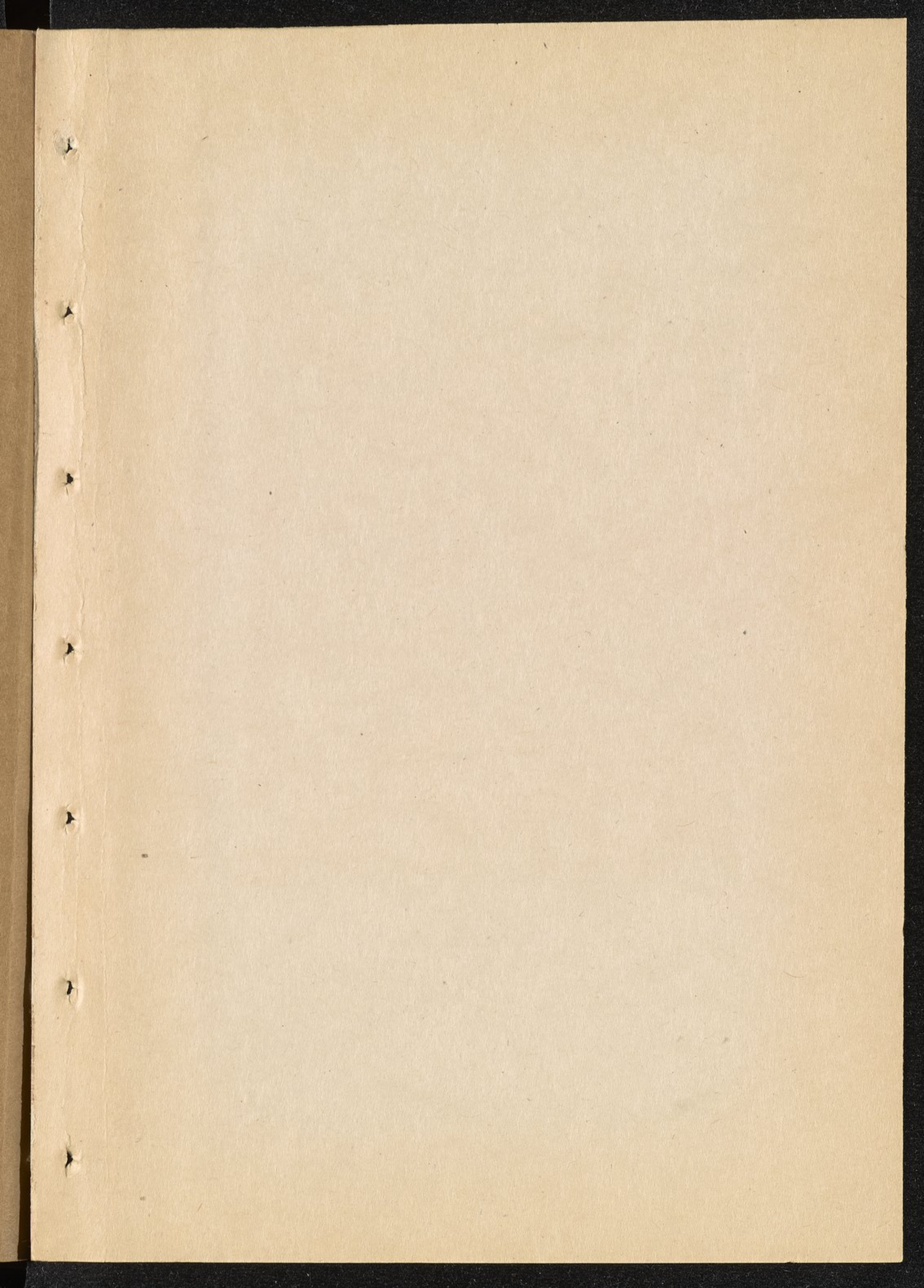
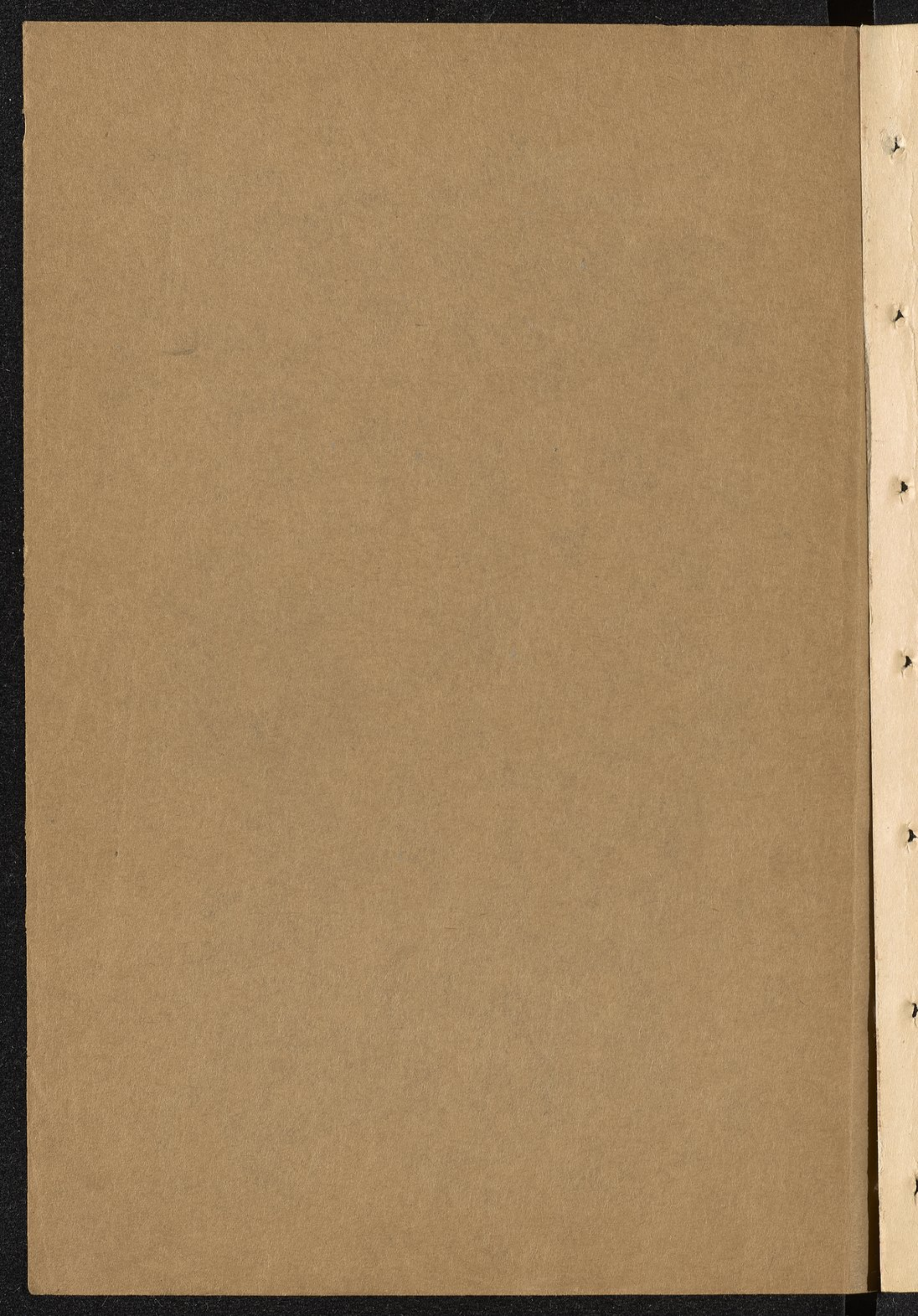








أبو العتاهية
الشاعر العالمى

تأليف
عبد المتعال الصعيدى
المدرس بالجامع الأزهر

(الطبعة الاولى)

يطلب من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها
لصاحبيهما حسن الحمصى وسالم
١٤٨ شارع محمد علي (أمام دار الكتب الملكية) بمصر

١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

القاهرة
مطبعة الشرق الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل البيان زينة الانسان ، والصلاة والسلام على محمد أفصح ولد عدنان ، القائل إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة

أما بعد — فان جمهور علماء الأدب على أن بشار بن برد زعيم الشعراء المحدثين ، لأنه هو الذى ابتدأ الشعر المحدث ، وكان القنطرة التى عبر عليها الشعراء بعده إلى هذا الشعر ، ولما كان ذلك وحده لايؤدى إلى تلك الزعامة على أولئك الشعراء ، وكان أبو العتاهية أولى عندى بها عليهم ، ألفت هذا الكتاب لاثبات ما أراه من ذلك الرأى ، وسميته (أبو العتاهية — الشاعر العالمى)

على أنى أرى أن تلك الزعامة يجب قصرها علي صدر ذلك العصر الذى ظهر فيه ذلك الشعر المحدث ، ولايصح أن تمتد إلى ما بعده ، لأن ذلك العصر يمتد إلى أيامنا الحاضرة ، وقد حدث فيه من الانقلابات فى الشعر والأدب ما يجعل لكل انقلاب زعيما ، ومن المجازفة الحكم بزعامة شاعر واحد لذلك العصر على طوله وامتداده ؟

عبد المتعال الصعيدى

تمهيد

شيوع شعر أبي العتاهية في العالم

الشعراء العَالَمِيُّونَ في شعراء العربية قليل عددهم، وربما يكون أبو العتاهية أول شاعر عربي بلغ هذه المنزلة الشعرية العالية، فكان له شعر عالمي تتسابق الأمم المختلفة اللغات إلى روايته ودراسته، وإلى نقله إلى لغاتها، وإذاعته في بلادها، قال أبو الفرج الإِصْبَهَانِيُّ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الأسدي إجازة، قال حدثني الرياشيُّ، قال: قدم رسول ملك الروم إلى الرشيد فسأل عن أبي العتاهية، وأنشده شيئا من شعره؛ وكان يحسن العربية، فمضى إلى ملك الروم وذكره له، فكتب ملك الروم إليه، ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية، ويأخذ فيه رهائن من أراد، وألحَّ في ذلك، فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستعفى منه وأباه، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته، وهما:

ما اختلف اللَّيْلُ والنهارُ ولا
دارتْ نجومُ السماءِ في الفَلَكِ

إلا لنقل السلطان عن مَلِكٍ
قد انقضى مُلْكُهُ إلى مَلِكِ

وقال أبو الفرج أيضا أخبرنى عيسى بن الحسين الْوَرَّاقُ وعمى الحسن بن محمد وحبيب بن نصر الْمُهَلَّبِيُّ ، قالوا حدثنا عمر بن شَبَّة قال : مر عابد براهب فى صَوْمَعَةٍ فقال له عظنى ، فقال : أَعِظُكَ وعليكم نزل القرآن ، ونبيكم محمد صلى الله عليه وسلم قريب العهد بكم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ؟ قلت نعم ، قال : فاتعظ ببيت من شعر شاعركم أبى العتاهية حين يقول :

تَجَرَّدْ من الدنيا فانك إنَّمَا وقَعْتَ إلى الدنيا وأَنْتَ مُجَرَّدُ

وقد روى المسعودى هذا بطريق آخر فقال : مرَّ عابد براهبٍ فى صَوْمَعَةٍ فقال له عظنى ، فقال : أَعِظُكَ وشاعركم الزاهد قريب العهد بكم ، فاتعظ بقول أبى العتاهية حيث يقول :

أَلا كُلُّ مَوْلُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُولَدُ
وَلَسْتُ أَرَى حياًّ لِشَىْءٍ يُخَلَّدُ
تَجَرَّدْ عَنَ الدنْيَا فإِنَّكَ إِنَّمَا
سَقَطْتَ إِلَى الدُّنْيَا وأَنْتَ مُجَرَّدُ
وَأَفْضَلُ شىء نِلْتَ مِنْهَا فَإِنَّهُ
مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَضْمَحِلُّ وَيَنْفَدُ

وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ أَعْقَبَ الدَّهْرُ غِرَّةً
فَأَصْبَحَ مَحْرُوماً وَقَدْ كَانَ يُحْسَدُ(١)

فَلَا تَحْسُدِ الدُّنْيَا وَلَـكِنَّ ذُمَّهَا
وَمَا بَالُ شىء ذَمَّهُ اللهُ يُحْمَدُ

وكل هـذا يثبت لنا أن أبا العتاهية كان شاعرا عالميا تباهى العربية به غيرها من اللغات ، وهذا على قلة هذا الصنف من الشعراء عندنا ، وندرة الشعر العالمى فى شعرنا ، وسنبين الآن العوامل التى كان لها أثرها فى هذا إلى ظهور شاعرنا أبى العتاهية ، لنعرف كيف ظهر فى الشعر العربى بهذا المظهر ، ونعرف حال العصر الذى نشأ فيه ، وكيف كان أثره فى شعره

ندرة الشعر العالمى فى العربية

يذهب علماء الأدب إلى أن الصناعة البديعية لم تظهر فى الشعر العربى ، ولم يـكلف بها شعراء العرب ، إلا فى العصر العباسى ، وذلك بعد ظهور أبى تمام ومن حاكاه فى تـكلف تلك الصناعة ، إلى أن جعلوا من الشعر صناعة لفظية لا تنطوى على معنى جليل ، أو غرض نبيل ، وإنما هى ألفاظ جوفاء لا طائل تحتها ، ولا فائدة فيها للناس فى دينهم أو دنياهم

---

(١) وفى رواية أعقب الدهر عزه فأصبح مرجوما

وإنى أخالف فى هذا أولئك العلماء ، وأرى أن الشعر العربى نشأ صناعة لفظية ، ووجدت فيه العناية بالبديع من حين ظهوره ، فكان الشعراء قبل الاسلام يتكلفون صناعة البديع كما تكلفها أبو تمام ومن أتى بعده ، وإن لم يبلغوا فى هذا ما بلغه أبو تمام والمقلدون له ، وإنى أرى أن أبا تمام لم يكن منه إلا إعادة هذه السنة فى الشعر ، بعد أن كاد فريق كبير من الشعراء العباسيين قبله يسلك بالشعر مسلكا جديدا يخالف هذا المسلك ، ويتناسب مع حال العصر الذى ظهر فيه ، ويتفق مع ذوقه وثقافته

فامرؤ القيس لا أبو تمام هو أول من عُنِىَ فى الشعر بالصناعة البديعية ، وتكلف منها مالم يتكلفه أحد قبله ، حتى تزاحمت فى شعره التشبيهات والمجازات والاستعارات والكنايات وما إليها ، فكل هذا من الصناعة البديعية ، لأن اسم البديع يشملها عند القدماء ، كما يشمل المقابلة والجناس ونحوهما

وقد ضاع أكثر شعر القدماء قبل امرىء القيس ، فلا يمكننا أن نعرف مقدار ما كان فيه من تلك الصناعة ، والظاهر أنه كان يغلب عليه العناية بالمعانى الأصلية ، فكانت تظهر فيه على فطرتها من غير تصنع ولا تكلف ، ولا اجتهاد فى تزيينها بتشبيه أو نحوه مما يرجع إلى عمل الخيال ونحوه

وقد ذكر علماء الأدب أن القدماء قبل امرىء القيس كانوا يقولون فى المرأة الحسناء أسيلة الخد ، تامة القامة أو طويلتها ، جيداء أو طويلة العنق ، فقال امرؤ القيس فى هذا : أسيلة مجرى الدمع ، بعيدة مهوى القرط

وأنهم كانوا يقولون فى الفرس : يلحق الغزال ، ويسبق الظليم ، فقال امرؤ القيس فى هذا (بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ) ومثل هذا يمكننا أن نعرف به مقدار العناية بتلك الصناعة فى الشعر العربى قبل امرىء القبس وبعده

وقد شُغِفَ الشعراء بعد امرىء القيس بما بدأ به فى الشعر العربى من العناية بتلك الصناعة ، وكانت حياتهم البدوية تضيق بهم ، وتضيق معها عقولهم وأفكارهم ، فوقفوا بالشعر عند مَعَانٍ محدودة ، متأثرة فى ضيقها وقلة أثر العقل المُثَقَّفِ فيها بضيق تلك الحياة ، وقلة أثر الثقافة فيها ، وكانوا يدورون حول تلك المعانى كما تدور الرحى حول محورها ، ولا يتصرفون فيها إلا بتشبيه أو استعارة أو كناية أو نحو هذا من تلك الصناعات التى تنافسوا فيها ، حتى وصلوا بها فى سجع كُهَّانِهِمْ إلى آخر حدودها ، فكان لهم سجع متكلف مرذول لا يقل قبحا عما تكلف منه فى آخر العصر العباسى ، وهكذا صار

الشعر العربى إلى تلك الصناعة اللفظية التى لايصلح معها أن يكون شعرا عالميا

ثم اتخذ أولئك الشعراء الشعر تجارة فزادوا الطين بِلّةً، وأفسدوا غرض الشعر بعد أن جعلوه جامد اللفظ والمعنى، فتكسبوا به فى المدح والهجاء، وداروا به فى تلك المعانى الضيقة، وساء أثر هذا الشعر فى الأمة العربية، وصار شعراؤها مَعَاوِلَ هدم فى بنائها، جامدين على ما ألفوه من هذا جمود أمتهم على أوثانها وأصنامها، حتى صارت هذه الأمة المسكينة إلى ذلك الجمود الدينى والأدبى فى عصرها الجاهلى

إصلاح الاسلام فى الشعر

وقد أراد الله رفع شأن هذه الأمة فى الدين والأدب، فأرسل فيها محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه القرآن الذى بلغ أعلى مراتب الفصاحة، ودعاهم إلى ذلك الدين الذى يؤلف بينهم، وينهض بهم فى دنياهم وأخراهم، فحارب أولئك الشعراء هذا الدين الجديد، لأنهم رأوا فيه خطرا على جمودهم الدينى والأدبى، وقد حاربهم هذا الدين كما حاربوه، وأزرى بشعرهم وأدبهم، وماهم فيه من جمود وضيق فكر، ودعا إلى أدب مُثَقَّفٍ يعنى فيه بالمعانى الأصلية السامية أكثر مما يعنى بتلك الصناعة اللفظية، ولا تُؤثَرُ فيه

المعانى الثانوية على المعانى الأصلية ، لأن الشعر والأدب يبعدان عن غايتهما السامية فى الحياة بقدر ما يُوغِلاَنِ فى العناية بالألفاظ ، إذ تصرفهما عن الغاية التى تتفق مع دعوة هذا الدين الذى جعل للبشر كافة ، وتقف حائلا دون فهم الناس لهما ، والعناية فيهما بما يعنيهم منهما

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يكره تشادق أولئك الشعراء ومن ينهج نهجهم ، ومن هذا أن بعضهم تشادق أمامه بهذا السجع : يارسول الله أرأيت من لاشرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل ؟ فغضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : أسجعٌ كسجع الجاهلية ، وقد افتخر صلى الله عليه وسلم بنشأته على بغض شعرهم فقال : لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله — الحديث

وهكذا نظر القرآن الكريم إلى أولئك الشعراء ، وإلى شعرهم ، فقال فيهم من سورة الشعراء (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) وقال فى شعرهم من سورة يٰس (وَمَا عَلَّمْنَاهُ

الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)

إهمال بنى مروان ذلك الاصلاح

وقد انقضى عهد النبوة والخلافة فى محاولة إصلاح الشعر والشعراء ، والوصول بالأدب العربى إلى الغاية السامية التى تتفق مع دعوة الاسلام ، ثم جاء عهد بني مروان بعد عهد النبوة والخلافة ، وكانوا من بنى أمية الذين كانت تغلب النُّعَرَةُ العربية عليهم ، لما كان لهم قبل الاسلام من الزعامة فى قريش ، وهذه النعرة هى التى جعلتهم على رأس المناوئين للدعوة الدينيـة العامة التى دعا اليها الاسلام ، فلم يذعنوا لها إلا بعد فتح مكة ، وإلا بعد أن رأوا أنه لامَنَاصَ لهم من الاذعان لها ، وقدبقيت فيهم تلك النعرة بعد إسلامهم ، فتأثروا بها فى سياستهم حينما صارت الدولة لهم ، ورجعوا بالشعر إلى نعرته العربية ، وحولوه عن وجهته الصالحة التى أخذ يتجه إليها على عهـد النبوة والخلافة ، وقطع فيها شوطا لا بأس به

ولقد ناهضهم بنوهاشم قوم النبى صلى الله عليه وسلم وعشيرته الأقربون ، وهم الذين كانوا أول من بادر إلى الإيمان بدعوته ، وفهم حقيقة ما يدعو إليه ، وعرف الغاية التى تتجه إليها دعوته ، وأن هذا الدين للبشر عامة ، لا للعرب خاصة ، وأنه لايصح أن يـكون فيه فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كما قال تعالى فى سورة

الحُجُرات (يا أيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

وما زالوا يعملون على إسقاط تلك الدولة الجامدة المتعصبة للعرب على غيرهم من الشعوب الاسلامية حتى تم لهم إسقاطها، وأقاموا بعدها دولتهم العباسية ، فنشأت دولة إسلامية خالصة ، وارتفعت فيها رؤوس الشعوب المسلمة من غير العرب ، كالفرس والترك وغيرهم ، وكان لهم نفوذ فيها ما زال يقوى حتى غلب على نفوذ العرب

النهضة الشعرية في صدر الدولة العباسية

ولقد كان قيام هذه الدولة العباسية ثورة دينية سياسية أدبية على تلك التقاليد العتيقة التى كانت الدولة المَرْوَانِيّة تأخذ بها فى الدين والسياسة والأدب،وكانت غاية هذه الثورة إقامة دولة المسلمين عامة ، لا للعرب خاصة ، وانتهاج خُطّةٍ جديدة فى السياسة الاسلامية تأخذ بيد كل الشعوب التى دانت للاسلام ، لتشترك فى بناء الوحدة الاسلامية ، وقد كان لهذا كله أعظم الأثر فى الدين والعلم والأدب والشعر ، إذ أخذ العلماء من كل هذه الشعوب يشتركون فى بناء

هذه الوحدة ، وأخذ الأدباء والشعراء يَقْضُونَ على تلك النُّعرة العربية فى الأدب والشعر ، ويعملون على تسهيل الشعر العربى للناس ، وتقريبه إلى تلك الشعوب الأعجمية التى رفعت رؤوسها فى الدولة العباسية ، وكان كثير من أولئك الشعراء يَمُتّ إلى أصل غير عربى ، فانتهزوا فرصة قيام هذه الدولة وإنصافها لهم ، وقاموا بثورة شديدة على تقاليد القدماء فى الشعر ، وعنايتهم بتفخيم اللفظ ، حتى ابتدأ بهم عصر جديد فى الشعر والأدب ، وانتهى بثورتهم عصر الشعراء الأقدمين ، وظهر بهم عصر الشعراء المحدثين ، وكانت الزعامة فى هذا العصر الجديد لأولئك الشعراء الذين كانوا من أصل غير عربى ، أما الشعراء الذى كانوا من أصل عربى فقد ضعف شأنهم فيه ، لأنهم جمدوا فى شعرهم على نعرتهم العربية ، وكانت عنايتهم بتفخيم لفظ الشعر وتجويد صناعته أكثر من عنايتهم بتثقيفه وتهذيبه والتفنُّنِ فى معانيه وأغراضه ، ولم يعد شأن هؤلاء الشعراء إلى الظهور إلا بعد ظهور أبى تمَّام وَالْمتنبِّى والْبحتُرى وأضرابهم من الشعراء الذين عادوا بالشعر إلى سُنَّتِه القديمة ، وَمَحَوْا فيه آثار تلك الثورة

ولهذا أختار أن أضع لعصر صدر الدولة العباسية اسم (عصر

النهضة الأدبية الأولى) فهو خير من ذلك الاسم الذى يسمونه به ، وأدل على ما امتاز به الشعر والأدب فيه ، وقد كان أعلام الشعر فى هـذا العصر هؤلاء الشعراء الثلاثة — بَشّارٌ وَأَبُو نُوَاسٍ وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ — فلنوازن بينهم فى هذا العصر ، لنعرف أيهم كان أكثر تأثرا بتلك الثورة التي قامت فيـه ؟

أبو العتاهية وبشار وأبو نواس

حال الثلاثة فى النهضة الشعرية

كان هؤلاء الشعراء الثلاثة أعلام تلك الثورة فى الشعر ، فقضوا فيها على طريقته القديمة التى مكثت طول عصر بني مروان جامدة على حالها قبل الاسلام ، لاتفكر فى تجديد ، ولا تنظر إلى ماظهر فى العرب من أَحْدَاث دينية وسياسة واجتماعية : خلقت منهم أمة جديدة ، وَشَعْبا يتألف من أجناس مختلفة ، وينظر إلى الشعر والأدب نظرا جديدا يخالف نظر العرب الخُلّصِ ، وله ذوق فى هذا أرق من ذوقهم ، وقد بدأت هذه الثورة هادئة فى بَشّارِ بن بُرْد ، ثم صارت إلى درجة من الشدة فى أبى نوَاسٍ ، ووصلت إلى غايتها فى أبى العتاهية

وكان مظهر هذه الثورة فى أربع نواح من الشعر : أولها ألفاظه ومعانيه ، وثانيها طريقته ومذهبه ، وثالثها أغراضه ومقاصده ، ورابعها أوزانه وقوافيه

أثرهم فى ألفاظ الشعر ومعانيه

فاما ألفاظ الشعر ومعانيه فقد اشترك الثلاثة فى الثورة عليها ،

فنقلوا الشعر من ألفاظه البدوية الخشنة ومعانيه الجامدة المحدودة إلى الألفاظ العربية الْحَضَرِيَّة السهلة ، ومعانيها الرقيقة المهذبة ، وكان بشار أول من عمل فى نقل ألفاظ الشعر ومعانيه من البداوة إلى الحضارة ، وقد قضى شطرا كبيرا من عمره يأخذ بطريقته وحده ، وشعراء العصر الْمَرْوَانِيِّ يحيطون به من كل جانب ، ويعيبون عليه تلك الطريقة الجديدة التى يأخذ بها ، ويرمونه بالقصور والعجز عن اللحوق بالفحول من الشعراء ، فكان يؤثر هذا فيه بعض التأثير ، ويمسكه عن الغلو والاندفاع فى طريقته ، ويجعله يأخذ أحيانا فى تقليد أولئك الفحول ، والأخذ بطريقتهم فى إيثار الغريب ، والقصد إلى الألفاظ الضَّخْمَةِ .

ومن ذلك أن رُؤْبَة بن العجاج[1] مدح عقبة بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر يسمعه ، فاستحسن ذلك من رؤبة ، فقال له رؤبة : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، وكان رجزهم فى ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها فى إيثار الغريب ، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة فى مدح عقبة بن مسلم يعارض بها أرجوزة رؤبة ، وهى :

---

(١) وفى كتاب الشعر والشعراء عقبة بن رؤبة

يا طَلَلَ الحى بذاتِ الصمَّدِ

بالله خبِّرْ كيف كنت بعدى

أحسنت من رَعْدٍ وتِرْبِ رَعْدِ

سَقْياً لأسماءَ ابنة الأشدِّ

قامت تُرَائى إذ رأتنى وحدى

كالشمس تحت الزِّبْرِجِ المُنْقَدِّ

إلى أن قال فى مدح عقبة :

إسلم وحُيّيتَ أبا المِلَدِّ

مفتاح باب الحَدَثِ المُنْسَدِ

مُشْتَرِكُ النَّيْلِ وَرِىُّ الزَّنْدِ

أغَرُّ لبّاسُ ثيابَ الحمدِ

للهِ أيامك فى مَعَدِّ

وفى بنى قَحْطانَ غير عَدِّ

كل امرىء رَهْنٌ بما يُؤَدِّى

ورُبَّ ذى تاجٍ كريم الْجَدِّ

كآل كِسْرَى وكآل بُرْدِ

أنْكَبَ جافٍ عن سبيل القصدِ

فصلته عن ماله والوُلْدِ

وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخَلَف الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : ياأبا معاذ ماأحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ماهذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قُتَيْبَة ؟ قال هى التى بلغتكما ، قالا بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أُورِدَ عليه مالا يعرف ، قالا فأنشدناها ياأبا معاذ ، فأنشدهما :

بَكّرَا صاحبىَّ قبل الهَجِيرِ

إنَّ ذاك النجاح فى التَّبْكيرِ

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت ياأبا معاذ مكان « إن ذاك النجاح » « بكرا فالنجاح » كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينيه

وهذه القصة تدل على أن طريقة المولدين الجديدة كانت قد تقررت فى ذلك الوقت ، وصارت واضحة النَّهَج ، معروفة اللفظ

والأسلوب ، وأن بشارا كان لايعدل عنها إلا لأسباب تجعله يتكلف طريقة الأقدمين ، ليثبت لهم قدرته عليها ، وأنه يهجرها عامدا ، ويتركها عن اعتقاد بأنها صارت غير لائقة بعد انتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة ، ومن خشونة العيش إلى لينه ، ومن ظلمة الأُمّيّة إلى نور العلم ، ولكنه لم يصل فى ذلك إلى ماوصل إليه أبو نُوَاسٍ وأبو العتاهية من تلك السهولة الممتنعة ، وتلك الرقة التى تزرى بما كان لهم من ضخامة وفخامة ، وكان أبو العتاهية يبلغ فى هذا مالا يبلغه أبو نواس ، فهو أكبر الثلاثة حظا فى تلك الثورة من ناحية اللفظ والمعنى

أثرهم فى طريقته

وأما طريقة الشعر فان بشارا لم يحدث فيها شيئا يذكر ، بل مضى فى ابتداء الشعر بالنسيب كما مضى فيه من قبله من الشعراء الأقدمين ، وقد ثار أبو نواس فى شعره على هذه الطريقة ، وأَخذ على أصحابها ماشغِفُوا به من البكاء على الأطلال والدّمَنِ ، فى عصر الحضارة والعيش المستقر فى القرى والمدن ، ونعى عليهم النسيب بهند ودَعْدٍ وغيرهما من البدويات بعد أن ذهب عصرهن ، وامتلأت القصور بتلك الجوارى المهذبات ، والنساء الفاتنات ، ومن ذلك قوله :

صِفَةُ الطُّلُولِ بلاغة القِدَمِ

فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

وقوله :

لا تَبْكِ ليلى ولا تَطْرَبْ إلى هِنْدِ

واشرب على الوِرْدِ من حمراء كالوَرْدِ

وقوله :

سَقْياً لغير العلياءِ فالسَّنَدَ

وغير أَطلال مَىَّ بالْجَرَدِ

وقوله :

يا رَبْعُ شُغْلُكَ إنّى عنك فى شُغُلِ

لا ناقتى فيك لو تدرى ولا جَملِى

وقوله :

تبكى على طَلَلِ الماضين من أسَدَ

لا دَرَّ دَرُّكَ قل لى من بنو أسدِ

لا جَفَّ دمع الذى يبكى على حَجَرِ

ولا صفا قلبُ من يَصْبُو إلى وتدِ

وهذه ثورة على القديم حقا ، ولكنها ليست هى الثورة الصحيحة التى يَجْدُرُ اسم الثورة بها ، ويصح أن تكون

تجديدا فى الشعر والأدب، وإنما هى ثورة شعوبيّة عابثة ، ولا فرق عندى بين ابتداء القصيد بالنسيب ووصف الخمر ، وربما يكون ابتداؤها بالنسيب أروح عند النفس ، وأخف فى السمع ، وإنما التجديد الصحيح فى هذا ماسبق إليه شاعر عصر بنى مروان العظيم ، وهو الكُمَيْتُ بن زيد الأسدى ، فقد خرج على ذلك التقليد القديم فى هاشمياته التى قالها فى مدح بنى هاشم والدعوة لهم ، وكانت أول شعر قاله فسترها ثم جاء الفرزدق فقال له : ياأبا فراسٍ ، إنك شيخ مُضَر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى ، فقال له : صدقت أنت ابن أخى ، فما حاجتك ؟ قال له : نُفِث على لسانى فقلت شعرا أحببت أن أعرضه عليك ، فان كان حسنا أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحا أمرتنى بستره ، وكنت أول من ستره على ، فقال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فأنشد ماقلت ؟ فأنشده :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

قال : فيم تطرب ياابن أخى ؟ قال :

ولا لَعِباً منى وذو الشوق يلعب

قال : بلى ياابن أخى ، قال :

ولم يُلْهِنِي دارٌ ولا رسم منزل
ولم يتطرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّب

قال : وَيْحَكَ من هؤلاء ؟ قال :

إلى النَّفرِ البيض الذين بِحُبِّهِمْ
إلى الله فيما نابني أتقرَّب

قال : أرِحْنِي ويْحَكَ من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشمٍ رهط النبي فانَّنِي
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضتُ لهم مني جناحي مودَّةً
إلى كَنَفٍ عِطْفَاهُ أهل ومرْحَب

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاَ
مِجَنًّا على أني أُذَمُّ وأُقصَب

وأُرْمَى وأَرْمِي بالعداوة أهْلَهَا
وإنِّي لأُذى فيهمُ وأؤنَّب

فقال له الفرزدق : ياابن أخي أذع ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقي ، وفي رواية أخرى أنه قال : قد طربت إلى شيء ماطرب اليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ماتركت أنت الطرب اليه ، فهذا هو التجديد

الصحيح فى مطلع القصيد ، وهو تجديد لم يسع الفرزدق وهو من زعماء الأقدمين إلا أن يذعن له ، ويشهد ببراعة الكميت فيه ، أما ذلك التجديد العابث الذى أتى به ابو نُواسٍ فليس فى الحقيقة بتجديد ، وليس فيه إلا استبدال وصف الخمر بالنسيب فى مطلع القصيد ، وليس وصف الخمر إلا نسيبا فيها ، وكل منهما غرض مستقل من أغراض الشعر ، فالتمهيد به لغيره من الأغراض الشعرية تَصَنُّعٌ غير مقبول ، وتَكَلُّفٌ غير حسن

وقد سلم ابو العتاهية من هذا العبث فى مطلع قصيده بعد أن أقلع فيما سيأتى عن سُنةِ شعراء عصره فى الشعر ، وأخذ نفسه بالجِدّ فى شعره ، وترك اللهو والعبث فيه ، فهو فى هذا أيضا أحسن حالا من بَشَّارٍ وأبى نُواسٍ

أثرهم فى أغراضه

وأما أغراض الشعر فان أبا العتاهية هو حامل راية التجديد فيها ، وصاحب القِدْحِ المُعَلَّى فى تذليل ذلك الشعر العربى الجامح للاداب الاسلامية العالية ، والأخلاق الكريمة التى دعا الاسلام اليها ، والمواعظ الحسنة النافعة ، وما الى ذلك مما يدخل فى تهذيب الشعر بالثقافة الاسلامية ، وفرض سلطانها عليه بعد طول جماحه عنها ، وترامیه فى أحضان الثقافة البدوية التى تأثر قبل الاسلام بها ، وألف مذاهبها وأساليبها ، وهو فتح كبير وُفِّقَ اليه أبو العتاهية ،

وقد نجح فيه نجاحا كبيرا ، حتى ذاع به شعره فى الشرق والغرب ، وطار به صيتُه فى سائر الأمم واللغات ، فأدى بهذا رسالة الشعر فى عصره أحسن تأدية، وأعلى كلمته فى الناس ورفع شأنه بينهم، وجعله فوق الملوك والعظماء بعد أن كان يتوسل به اليهم ، ولم يكن لبشار ولا لأبى نواس فى هذا مثل ما لأبى العتاهية، اللهم إلا جولات قصيرة تأتى فى أثناء القصيد على عادة غيرهما من الشعراء ، ومن هذا تلك القصيدة التي قالها بشار فى تأييد إبراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور ، وهى قصيدة عظيمة نعى فيهـا على المنصور استبداده فى الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى ، وفيها يقول للمنصور .

أبا جعفر ماطولُ عيش بدائِم
ولا سالمٌ عما قليل بسالِم

على الملك الجبار يَقْتَحِمُ الرَّدَى
ويصرعهُ فى المأزقِ الْمُتَلَاحِمِ

كأنك لم تسمع بقتل متوَّج
عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

تَقَسَّم كِسْرَى رهطُهُ بسيوفهم
وأمسى أبو العباس أحلام نائم

ومروانُ قد دارتْ على رأسه الرَّحَى

وكان لما أجرمت نَزْرَ الجرائم

فأصبحتَ تجرى سادراً فى طريقهم

ولا تتقى أشباه تلك النقائم

تجردتَ للإسلام تَعْفُو سبيلَهُ

وتعرى مطاه لِلُّيُوث الضَّرَاغِم

فما زلت حتى استنصر الدِّينُ أهلَهُ

فعاذوا عليك بالسيوف الصوارم

ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقول لبسامٍ عليه جلالهُ

غدَا أرْيَحِيًّا عاشقاً للمَكارِمِ

اذا بلغ الرأى المشُورةَ فاستْعنْ

برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة

فان الخْوافِي قوَّةٌ للقوادم

وما خير كف أمسكَ الغُلُّ أختَهَا

وما خير سيف لم يؤَيَّدْ بقائم

وخلِّ الْهُوَيْنَا للضعيف ولا تكن
نَؤُوماً فإنّ الْحُرَّ ليس بنائم

وقد صرف بشار وأبو نواس أشعارهما فى العبث والمجون ، فهتكا بها الأعراض ، وخرجا بها على آداب الدين الحنيف ، حتى ضج أهل عصرهما منهما ، وذاع الفساد بين الناس بشعرهما

أثرهم فى أوزانه وقوافيه

وأما أوزان الشعر وقوافيه فلم يكن لبشار وأبى نواس أثر يذكر فيهما ، فلم يخترعا فيها جديدا ، ولم يخرجا عن وزن من تلك الأوزان التقليدية ، وأبو العتاهية هو الذى انفرد بالثورة على تلك التقاليد فى أوزان الشعر وقوافيه ، فاخترع فى الشعر أوزانا جديدة لم يسبق اليها ، ولم يجمد على تلك الأوزان التقليدية التى جمد غيره عليها ، وقد سأله بعضهم هل تعرف العروض ؟ فقال له : أنا أكبر من العروض ، وهذا جواب يدل على مقدار اعتداد هذا الشاعر العظيم بنفسه ، وعلى أنه كان يذهب فى الثورة على تقاليد الشعر القديمة إلى حد لم يصل اليه بشار ولا أبو نواس ، ولا غيرهما من شعراء عصره

ومن ذلك أيضا ما روى أنه اجتمع مع سَلْمٍ الخاسر فأنشده بعض أشعاره ، ثم قال له : كيف رأيتها ، قال سلم : لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية ، فقال له أبو العتاهية : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها

ومن أشعاره التى خرج فيها على العروض قوله :

هَمُّ القاضى بيتٌ يُطْرِبْ قال القاضى لما عُوتب
ما فى الدنيا إلا مذنب هذا عذر القاضى واقلب

وزنه فَعْلُنْ أربع مرات ، وقد قال قوم إن العرب لم تقل على وزن هذا شعرا ، ولا ذكره الخليل ولا غيره من العَرُوضِيِّين

أبو العتاهية أكبرهم أثرا

فاذا وازنا بعد هذا كله بين أبى العتاهية وبشار وأبى نواس فيما أحدثوه من التجديد فى هذه النواحى الشعرية ، وجدناه يربى فيها عليهما ، ووجدنا أنه كان موفقاً فيما أحدثه من التجديد فيها كلهـا ، ووجدنا أن بشارا وأبا نواس لم يكن لهما تجديد يذكر إلا فى الناحية الأولى وحدها ، وخرجنا من هذا كله بأن أبا العتاهية أولى منهما باسم الشاعر المجدد فى ذلك العصر ؟

ترجمة أبى العتاهية

عصره

ولد أبو العتاهية فى عصر كان المسلمون قد ثاروا ثورتهم التى أسقطوا فيها دولة بنى مروان من بنى أمية ، وأقاموا دولة بنى العباس من بنى هاشم قوم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ينشدون فى حكم بنى العباس ما يعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين، حتى يكون أميرهم فيه كواحد من رعيته ، لا يؤثر نفسه بشىء من أمور الدنيا عليهم ، ولا يأخذ لنفسه من أموال الدولة إلا ما يفرضونه له منها ، كما فرضوا لأبى بكر رضى الله عنه وغيره من بعده ، فلم يحقق لهم بنو العباس هذا الرجاء ، بل ظهروا بأبهة الملك التى كان يظهر بها بنو مروان ، وآثروا أنفسهم بأموال الدولة ، وجعلوها ملكا مباحا لهم ينفقون منه فى مصالح المسلمين ما تجود به أنفسهم ، وما يبقى بعد كل حاجاتهم وحاجات أهل بطانتهم وحاشيتهم ، وكذا أهل الملق من الشعراء والندماء ومن اليهم ، ولم يحققوا للمسلمين من كل ما أملوه فيهم إلا المساواة بين شعوب المسلمين فى أمور دولتهم، وإلا نشر لواء الثقافة العلمية فى حدودها الواسعة ، فوحدت بين هذه الشعوب فى حكمها، وجملت من ثقافاتها العلمية المختلفة ثقافة واحدة تجمع بينها،

واجتهدت فى إحياء العلوم الدينية والعربية والفلسفية على اختلاف أنواعها، فأمكن بذلك تغذية النفوس من تلك العلوم بما يوافق مشاربها وأهواءها، ولا يضيق بتلك العناصر المختلفة التى اجتمعت فيها

وقد انقسم المسلمون فى شأن هذه الدولة بعد قليل من ظهورها، فتجافاها أهل الورع منهم، وأبوا أن يتولوا أعمالها، كما حصل من الامام أبى حنيفة وغيره، وسار معها جمهور المسلمين فى ذلك السبيل الذى سارت فيه، واستولى عليهم اليأس من ذلك المثل الأعلى فى الحكم، وعود الدولة إلى مثل ما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين، فلما أقبلت الدنيا عليهم فى هذه الدولة انغمسوا فيها إلى أذقانهم، وتفننوا فى التلذذ بها، ووصلوا فى هذا السبيل الى ما لم يصل اليه الناس فى الدولة المروانية، وكادوا ينسون الآخرة كما نسيها من كان قبلهم، فكانوا فى أشد حاجة إلى شاعر مصلح يوقظهم من تلك الغفلة المهلكة، ويؤدى فى الشعر رسالته التى يجب أن يؤديها فى كل عصر على الوجه الذى يناسبه، وقد كان لهم ذلك فى شاعرنا أبى العتاهية

نشأته فى الكوفة

وكان ميلاده سنة ثلاثين ومائة من الهجرة، وهذا قبل قيام الدولة العباسية بسنة أو سنتين، وقد نشأ بالكوفة وهى من مراكز العلم والأدب كالبصرة وبغداد، وأبو العتاهية لقبه واسمه إسماعيل ابن القاسم بن سُوَيْد بن كيسان مولى عَنَزَة، وكان خالد بن الوليد

قد سبى كيسان مع جماعة صبيان من أهل عين التمر، فوجه بهم الى أبى بكر ، وكانوا أربعين غلاما يتعلمون الانجيل ، ففرقهم فى أهل البلاد والأمصار ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم، فكان لهم أثر صالح فى العلم والأدب ، ونبغ من أولادهم جماعة كانوا من أكابر رجال العلم والسياسة والحرب ، مثل موسى بن نصير ومحمد بن سيرين ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة ، وكان كيسان جد أبى العتاهية من نصيب عبَّاد بن رفاعة العنزى ، لأنه سمعه حين سأله أبو بكر عن نسبه يذكر أنه من عنزة ، وكان يكفله فى عين التمر قرابة له منهم، فاستوهبه عباد من أبى بكر، ثم أعتقه بعد هذا ، فتولى عنزة وكان بنوه يذكرون أنهم منها ، ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا يسكنون عين التمر، والظاهر أنهم من النبط ،لأنهم كانوا يحترفون فى الكوفة صنعة الجرار ، وطبيعة العرب تأبى الاحتراف بمثل هذا

وقد نشأ أبو العتاهية بالكوفة بين أهله يعمل الجرار معهم ، ولم يذكر أحد أنه اشتغل بالتعليم فى صغره ، ولكن الظاهر من أمره أنه اشتغل بقدر منه، وأن هذا القدر كان عونا له فى الحياة التى آل أمره أخيراً اليها ، وكان بالكوفة طائفة من خُلَعَاء الشعراء وأهل المجون والمخنثين ، مثل والبَةَ بن الحُبَاب الأسدى الشاعر ، وهو

أستاذ أبى نواس فى الخلاعة والمجون ، فاتصل أبو العتاهية بتلك الطائفة الخليعة فى صغره ، وأطلق لنفسه عنانها معها ، وتخنث وحمل زاملة المخنثين ، وأخذ عنهم شعرهم الخليع فى التغزل والمجون وما اليهما ، حتى نبغ فى الشعر واشتهر به فى الكوفة ، فكان الأحداث والمتأدبون يأتونه وهو جرَّارٌ فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه .

انتقاله إلى بغداد واتصاله بعتبة

ولما بلغ مبلغ الرجال ونبه أمره فى الكوفة أراد أن يقصد بغداد ليتصل بأمرائها ؛ ويظهر فيها بما يتفق مع ما وصل اليه فى الشعر والأدب ، ويستفيد بشعره عند هؤلاء الأمراء ، وكان ثالث ثلاثة فِتيانٍ شباب أدباء قصد وهامعه ، ولم يكن لهم فيها من يقصدونه ، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر ، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذى بباب الجسر فى كل غداة ، فمرت بهم يوما امرأة راكبة معها خَدَمٌ سُودَانٌ ، فقالوا من هذه ؟ قالوا خالصة ، فقال أحدهم : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعرا فأعانوه عليه ، ثم مرت بهم أخرى راكبة معها خدم بِيضان ، فقالوا من هذه ؟ قالوا عُتبَة ، فقال أبو العتاهية : قد عشقت عتبة ، ولم يزالوا كذلك إلى أن التأمت لهم أشعار كثيرة فيهما ، فدفع صاحب خالصة بشعره إليها ، ودفع أبو العتاهية بشعره إلى عتبة ، وألحَّا فى ذلك إلحاحا شديدا ، فمرة تُقبلُ أشعارهما ، ومرة يُطردان ، إلى أن صح عزم الجاريتين

على امتحان عاشقيهما بمال على أن يدّعا التعرّض لهما، فان قبلا المال كانا مُستأكلين ، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين، وكان لهما معهما شأن فى الحالين .

فلما كان الغد مرت خالصة فعرض لها صاحبها، فقال له الخدم: اتبعنا، فتبعهم، ثم مرت عتبة فعرض لها أبو العتاهية، فقال له الخدم اتبعنا، فتبعهم، فمضت به إلى منزل خليط لها بزاز، فلما جلست دعت به فقالت له: ياهذا إنك شاب وأرى لك أدبا ، وأنا حُرمة خليفة ، وقد تأذيتك ، فان أنت كففت و إلا أنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين، ثم لم آمن عليك ،فقال لها : فافعلى بأبى أنتِ وأمى ،فانك إن سفكت دمى أرحتنى ،فأسألك بالله إلا فعلت ذلك اذا لم يكن لى فيك نصيب، فأما الحبس [1] والحياة ولا أراك فأنت فى حرج من ذاك ؛ فقالت: لاتفعل ياهذا، وأبق على نفسك ، وخذ هذه الخمسمائة دينار واخرج عن هذا البلد، فلما سمع ذكر المال ولّى هاربا، فقالت ردوه وألحت عليه فيها، فقال لها : جعلت فداك ، ما أصنع بعرض من الدنيا وأنا لا أراك ، وأنك لتبطئين يوما واحدا عن الركوب فتضيق بى الأرض بما رُحبت ، فزادت له فى ذلك إلى ألف دينار ، فجاذبها مجاذبة

---

(١) يعنى أن تحبس نفسها عنه ويريد أنه يفرط فى حياته إن فعلت ذلك .

شديدة ، وقال لها : لو أعطيتِنى جميع مايحويه الخليفة ما كانت لى فيه حاجة وأنا لا أراك بعد أن أجد السبيل إلى رؤيتك ، ثم خرج فجاء الغرفة التى كانوا ينزلونها ، فاذا صاحبه مُوَرَّم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنته ، فلما مدَّ يده إلى المال صفعوه ، وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلك لَتُودِعَنَّهُ الحبس ، فاستشار أبا العتاهية فى المُقَام ، فقال له : اخرج وإياك أن تقدر عليك

ثم التقتا فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، وأحمدت عتبة أبا العتاهية ، وصح عندها أنه مُحِبٌّ مُحِقٌّ ، فلما كان بعد أيام دعته إليها وقالت له : بحياتى عليك — إن كنت تعزُّها — إلا أخذت مايعطيك الخادم فأصلحت به من شأنك ، فقد غمّنى حالك ، فامتنع أبو العتاهية من ذلك ، فقالت له : ليس هذا مما تظن ، ولكنى لاأحب أن أراك فى هذا الزى ، فقال لها : لو أمكننى أن تَرَيْنِى فى زى المهدى لفعلت ذلك ، ثم أقسمت عليه ، فأخذ الصُّرَّة فاذا فيها ثلثمائة دينار ، فاكتسى كسوة حسنة ، واشترى حماراً يركبه ، وحسن بها حاله

اتصاله بها لغير الحب

وهذه الرواية يفيد ظاهرها أن أبا العتاهية كان صادقا فى حب عتبة التى شَبَّبَ بها فى شعره ، وتَوَلَّهَ بها فيه إلى أن أقلع عن ذلك فيما سيأتى من نسكه ، وقد يكون ما فعله مع عتبة حين أبى أن يأخذ

المال منها من البراعة فى إخفاء غرضه الذى يقصده من الاتصال بها ، وهذا هو الذى يراه فى ذلك ابنه عتاهية ، فقد روى عنه أن أباه إنما أقبل إلى بغداد ليمدح المهدى ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فلما تطاولت أيامه أحبَّ أن يُشْهِرَ نفسه بأمر يصل به إليه ، فلما بصر بعتبة راكبة فى جمع من الخدم ، تتصرف فى حوائج الخلافة ، تعرض لها ، وأمّل أن يكون تولُّعه بها هو السبب الموصل إلى حاجته ، وانهمك فى التشبيب والتَّعرُّضِ فى كل مكان لها ، والتفرُّدِ بذكرها ، وإظهار شدة عشقها ، وكان أول شعر قاله فيها :

رَاعَنِى يا يزيدُ صوتُ الغرابِ
بحِذَارِى لِلْبينِ من أحبابى

يا بلائى ويا تقلْقُلَ أحشا
ئِى وتعْسِى لطائرٍ نعَّاب

أفصح البينُ بالنعيب وما أفـ
ـصح لى فى نعيبه بالإياب

فاستهلّتْ مدامعى جزعاً منـ
ـه بدمع ينهَلّ بالتَّسْكاب

وُمنِعتُ الرُّقاد حتى كأنى

أرمدُ العين أو كُحِلتُ بِصاب

قلتُ للقلب إذ طوَى وصل سُعْ

دَى لهواه البعيد بالأنساب

أنت مثل الذى يفِرُّ من القط

رِ حِذَارَ الندى إلى المِيزاب

والذى أرجحه فى ذلك مايراه ابنه عتاهية ، لأنه أدرى بخبيئة أبيه ، ولأن عتبة لم تصدق فى حبه حتى يصدق فى حبها ، وإنما كانت تتخذه للاعلان عنها بين منافساتها من جوارى المهدى ، والحقيقة ان ابا العتاهية لم يكن إلا رجلا تاجر الا يهمه الحب ، وهو لم يقصد بغداد إلا من أجل المال ، وقد جعل عتبة من وسائله إليه ، وإن اجتهد فى أن يظهر أمامها بمظهر الحب الذى لا شك فيه

وكانت عتبة تقبل منه ذلك الظاهر الخادع ، ولا يخفى عليها باطن أمره معها ، وكانت أحيانا تتبرَّم به إذا زاد عن الحد فى التشبيب بها ، وأحيانا تُشفِق عليه وترْثى له ، ومن ذلك أنه لما كثر تشبيبه بها شكت إلى مولاتها الخَيْزُرَان زوج المهدى مايلحقها من الشناعة بذلك ، ودخل عليها المهدى وهى تبكى بين

يدى الخيزران ، فسألها عن خبرها فأخبرته ، فأمر باحضار أبى العتاهية فأدخل إليه ، فلما وقف بين يديه قال : أنت القائل فى عتبة :

اللهُ بينى وبين مولاتى
أبْدَتْ لى الصدَّ والمَلالاتِ

ومتى وصلتك حتى تشكو صدَّها عنك ؟ قال : ياأمير المؤمنين، وأنا الذى أقول :

ياناقُ حثّى بنا ولا تَهنْى
نفسك فيما تَرَيْنَ راحاتِ
حتى تجيئى بنا إلى ملكٍ
تَوّجَه الله بالمَهابات .
يقول للريح كلما عصفتْ
هل لك ياريح فى مُبَارَاتى
عليه تاجان فوق مَفْرِقه
تاج جمال وتاج إخبَاتِ

قال فنكس رأسه ، ونكت بالقضيب ، ثم رفع رأسه فقال : أنت القائل :

ألا ما لسيدتى ما لها
أدلّت بأجمل إدلالها

وجاريةٍ من جوارى الملو
ك قد أسكنَ الحسنُ سربالها

ثم سأله عن أشياء فأُفحم ، فأمر بجلده نحوا من حدٍّ ، وأخرج مجلودا ، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال فقال :

بَخٍ بَخٍ يا عُتْبَ مثلكمُ
قد قتل المهدىُّ فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها وفاض دمعها ، وصادفت المهدى عند الخيزران ، فقال : ما لعتبة تبكى ؟ قالوا رأت أبا العتاهية مجلودا ، وقال لها كيت و كيت ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، ففرقها أبو العتاهية على من بالباب ، فكتب صاحب الخبر بذلك ، فوجه إليه المهدى : ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ، فقال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ، فوجه اليه بخمسين ألفا أخرى ، وحلف عليه ألا يفرقها ، فأخذها وانصرف

ومما يؤيد أن عتبة كانت تعلم أنه لم يكن صادق الحب فيها ما روى

المُبَرِّدُ أن أبا العتاهية أهدى إلى المهدى فى يوم نَوْرُوزٍ بَرْنيَّةً صينيَّةً فيها ثوب مُمَسَّكٌ فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية .

نفسى بشىء من الدنيا مُعَلَّقَةٌ

الله والقائم المهدىُّ يَكْفيها

إنى لأَيْأَسُ منها ثم يُطْمِعُنِى

فيها احْتِقَارُكَ للدنيا وما فيها

فهم المهدى أن يدفع اليه عتبة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مع حُرْمَتِي وخدمتى تدفعنى إلى بائع جرار يكتسب بالشعر ! فبعث اليه : أما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد أمرنا لك بملء البرْنِيَّةِ مالا ، فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب ويقول : إنما أمرلى بدنانير ، وهم يقولون بدراهم ، فقالت له : أما لو كنت عاشقا لعتبة لما اشتغلت بتمييز العَيْنِ من الوَرِق

فلم تكن إذن قصة هذا الحب بين أبى العتاهية وعتبة إلا نوعا من اللهو والعبث ، وإن وقوفه هو وصاحبه فى الطريق حتى إذا مرت عليهما خالصة وعتبة قال صاحبه قد عشقت خالصة ، وقال هو قد عشقت عتبة ، ليدل على أنه كان حبا بالقول فقط ، وعلى أنهما لم يكونا يريدان إلا أن يتخذاه وسيلة للظهور والمران على الشعر ،

فلم يكن حبا صادقا يملك عليهما حياتيهما وشعوريهما ، كما ملك الحب الصادق ذلك على الشعراء العشاق قبلهما ، ولم يلبث صاحبه إلا قليلا حتى انكشف أمره ، أما هو فقد أجاد ما تظاهر به من حب عتبة ، وتمكن بِظَرْفِهِ من أن يكسب منها بعضا من العطف عليه ، دون ان يصل ذلك إلى حبها له

بعض من نوادره معها

وقد كان له مع عتبة نوادر لطيفة تدل على كمال ظَرْفِهِ ، وعلى أنه كان موهوبا بحظ كبير من حسن الحيلة ، وأنه كان يمضى فى العَبَثِ معها إلى الحد الذى تحتمله خِفّةُ الشباب ، ويحمله عليه حب اللهو ، ومن ذلك ما ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد قال : إن أبا العتاهية لما ألَحَّ فى أمر عتبة لأول دخوله بغداد ولم ينل منها شيئا ، وجدها يوما قد جلست فى أصحاب الجوهر ، فمضى فلبس ثياب راهب ، ودفع ثيابه إلى إنسان كان معه ، وسأل عن رجل كبير من السوق ، فَدُلَّ على شيخ صائغ فجاء اليه فقال : إنى قد رغبت فى الاسلام على يَدَىْ هذه المرأة ، فقام وجمع جماعة من أهل السوق وجاء فقال : إن الله قد ساق اليك أجراً ، هذا هو راهب قد رغب فى الاسلام على يديك ، فقالت هاتوه ، فدنا منها فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وقطع الزُّنّار ودنا فقبل يدها

فلما فعل ذلك رفعت البُرْنُسَ فعرفته فقالت: نحُّوه لعنه الله، فقالوا لها: لاتلعنيه فقد أسلم، فقالت: إنما فعلت ذلك لقَذَرَه، فعرضوا عليه كُسْوَةً فقال: ليس لى حاجة الى هذه، وإنما أردت أن أشْرُف بولَائِها، فالحمد لله الذى منَّ علىَّ بحضوركم، وجلس فجعلوا يعلِّمونه الحمد، وصلّى معهم العصر، وهو فى ذاك بين يديها ينظر إليها، لاتقدر له على حيلة

وحدث المُبَرِّد أن رَيْطَةَ بنت أبى العباس السفّاح وجَّهتْ إلى عبد الله بن مالك الخُزَاعِىِّ فى شراء رقيق للعتق، وأمرت جاريتها عتبة — وكانت لها ثم صحبت الخَيْزَرانَ بعدها — أن تَحْضُرَ ذلك، فانها لجالسة إذ جاء أبو العتاهية فى زِىٍّ متنسِّك فقال: جعلنى الله فداك، شيخ ضعيف لايقوى على الخدمة، فان رأيت — أعزكِ الله — شرائى وعتقى فعلتِ مأجورة، فأقبلت على عبدالله فقالت: إنى لأرى هيئة جميلة، وضعفا ظاهرا، ولسانا فصيحا، ورجلا بليغا، فاشترِه وأعتِقْه، فقال نعم، فقال أبو العتاهية: أتأذنين لى — أصلحكِ الله — فى تقبيل يدك، فأذنت له، فقبّل يدها وانصرف، فضحك عبدالله بن مالك وقال: أتدرينَ من هذا؟ قالت لا، قال هذا أبو العتاهية، وإنما احتال عليكِ حتى قبّل يدك

أشعاره فيها

ومن مختار شعره فى عتبة قوله :

بالله ياحُلْوَةَ العينين زوريني

قبل الممات وإلاّ فاستزيريني

هذان أمران فاختارى أحبّهما

إليك أولا فداعى الموت يدعونى

إن شئت موتاً فأنت الدهر مالكة

روحى وإن شئت أن أحيا فأحيينى

ياعُتْبَ ماأنتِ إلا بِدْعَة خُلِقت

من غيرطين وخَلْقُ الناس من طين

إنى لأعجب من حبٍّ يقرِّبنى

ممن يباعدنى عنه ويُقْصِينى

لو كان ينصفنى مما كَلِفْتُ به

إذن رضيتُ وكان النّصف يرضينى

ياأهل وُدّىَ إنى قد لطفتُ بكم

فى الحب جهْدِى ولكن لاتبالونى

الحمد لله قد كنا نظنكم

من أرحم الناس طرًّا بالمساكين

أما الكثير فلا أرجوه منكِ ولو

أطمعتنى فى قليل كان يكفينى

وقوله :

ألا ياعتْبَ ياقمر الرصافهْ

ويا ذات الملاحة والنظافهْ

رُزِقتِ مودَّتى ورزقت عطفى

ولم أرزق فَدَيْتُكِ منك رافهْ

وصرتُ من الهوى دنفاً سقيماً

صريعاً كالصريع من السُّلافهْ

أظلُّ إذا رأيتك مستكينا

كأنك قد بُعِثْتِ علىَّ آفهْ

ولا يخفى أن قوله (كأنك قد بعثت على أفه) مما لايليق من عاشق لمن يحب ، ولكننا قد ذكرنا أن أبا العتاهية لم يكن صادقا فى حبه ، وإنما يتخذه وسيلة لغرضه من الظهور والاتصال بالعباسيين ، فكان إذا رأى منها إعراضا ، بدا منه مثل ذلك التذمر ، وأظهر بعض مايخفيه فى نفسه من التململ

ومن شعره فيها أيضا قوله :

قال لى أحمدٌ ولم يدْرِ مابى

أتحبُّ الغداة عُتْبَة حقًا

فتنفّستُ ثم قلتُ نعم حُبًّـ

ـا جرى فى العروق عِرقًا فعرقا

لو تَجُسّين يا عُتَيْبةُ قلبى

لوجدت الفؤاد قَرْحًا تَفَقّا

قد لعَمْرِى مَلَّ الطبيب ومَلَّ الـ

أهلُ منى ممَّا أقاسى وألقى

ليتنى مِتُّ فاسترحتُ فانى

أبداً ماحَيِيتُ منه مُلَقّى

وفى ذلك أيضا مايدل على أنه كان يتكلف ذلك الحب ، كقوله فى البيت الأول (أتحب الغداة عتبة) فكأنه لايحبها قبلها ، اللهم إلا أن يكون قيدا لامعنى له ، وكذلك قوله فى البيت الأخير (ليتنى مت فاسترحت) لأن صاحب الحب الصادق لايتمنى مثل هذا ، ولا يظهر مثل هذا السأم والملل

وقال فيها أيضا :

عُتْبَ ما للخيالِ خبّرينى ومالى

لا أراهُ أتانى زائرًا مُذْ ليالى

لو رآني صديقي رقّ لي أو رثى لي
أو يراني عدوّي لان من سوء حالي

اتصاله بالمهدي

وكان اتصال أبي العتاهية بعتبة أول وسيلة اتخذها للاتصال بالمهدي؛ ولكنها كانت وسيلة عابثة لا توصله إلى المنزلة التي يطلبها عنده، فأراد أن يتخذ إليه مع ذلك وسيلة أخرى تسلك به سبيل الجِدّ، وتوصله إلى مطلوبه عند المهدي، فاتصل بخاله يزيد بن منصور، وكان من أكرم الناس، وأحفظهم لِحُرْمَةٍ، وأرعاهم لعهد، وكان باراً بأبي العتاهية، كثيراً فضله عليه، وكان أبو العتاهية منه في مَنَعَةٍ، وحصن حصين، مع كثرة ما يدفعه إليه ويمنعه منه من المكاره، ومن أجله كان يتعصب أبو العتاهية لِلْيَمَانِيَةِ أخوال المهدي، ويمدحهم فيما يمدحه به من شعره، بعد أن مكنه يزيد بن منصور من الاتصال به، ومن ذلك قوله

سقيتَ الغيثَ يا قصر السلامِ فنعم مَحَلَّةُ الملك الهمامِ
لقد نشر الاله عليك نوراً وحفّكَ بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهديّ حتى تدور عليَّ دائِرَةُ الحِمَام
له بيتان بيتٌ تُبَّعِيٌّ وبيت حَلَّ بالبلد الحرام

ارتفاعه في دولته

وقد اتصلت مدائح أبي العتاهية بالمهدي، فقرّبه منه، وعظم

مقامه فى دولته ، ونال من جوائزه ما لم ينله غيره من الشعراء ، وكان الأمر يصل بينهما أحياناً إلى التَّبَسُّط فى أوقات اللهو ، فتسقط بينهما الكلفة ، ويُنسى الفارق الكبير بينهما ، ومن ذلك أن المهدى خرج يوما إلى الصيد ومعه أبو العتاهية و بعض حاشيته ، فوقعوا منه على شىء كثير ، وتفرقوا فى طلبه ، وأخذ المهدى فى طريق غير طريقهم ، وكان معه أبو العتاهية ، فعرض لهما واد فسيح ، وتغيمت السماء و بدأت تمطر ، فتحيرا فى أمرهما ، وأشرفا على الوادى فاذا فيه ملاح يعبر الناس ، فلجآ إليه وسألاه عن الطريق ، فجعل يضعف رأيهما ، ويعجزهما فى بذلهما أنفسهما فى ذلك الغيم للصيد ، ثم أدخلهما كوخا له ، وكاد المهدى يموت برداً ، فقال الملاح له : أغطيك بجبتى هذه الصوف ؟ قال نعم ، فغطاه بها فتماسك قليلا ونام فافتقده غلمانه ، وتبعوا أثره حتى أتوا إليه ، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب ، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه ، وألْقَوا عليه الخزَّ والوَشْىَ ، فلما انتبه قال لأبى العتاهية . ويحك ما فعل الملاح ؟ فقد والله وجب حقه علينا ، فقال : هرب والله خوفا من قبح ما خاطبنا به ، فقال : إنا لله ، والله لقد أردت أن أغنيه ، و بأى شىء خاطبنا ؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به ، بحياتى

عليك إلا ماهجوتنى ، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف تطيب نفسى بأن أهجوك ؟ فقال: والله لتفعلن، فانى ضعيف الرأى مغرم بالصيد، فقال:

يالابس الوَشى على ثوبهِ   ما أقبح الأشيب فى الراحِ

فقال له زدنى بحياتى، فقال:

لو شئت أيضاً جُلْتَ فى خامة   وفى وشاحين وأوْضاح

فقال له: ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس، وأنا أستأهل، زدنى شيئاً آخر، فقال: أخاف أن تغضب، فقال لا والله، فقال:

كم مِنْ عظيم القدر فى نفسه   قد نام فى جُبَّةِ مَلاَّحِ

موقف عظيم له معه

والحق أن اتصال أبى العتاهية بالمهدى لم يكن اتصال الشاعر المستجدى الخانع، بل كان اتصال الشاعر الذى يعرف لنفسه قدرها، فاذا رأى شيئا من ممدوحه لايرضى عنه ، نسى فى ذلك ماله وجوائزه، ولم يذهب فيه على ما يرضى هواه ، بل يؤثر فى ذلك أن يرضى نفسه وضميره ، وإن كان يسلك فيه سبيل التلطف ، ويأتى به على قدر ما تسمح به ظروف عصره فى مخاطبة الملوك ، وتهدئة ثائرتهم عند غضبهم .

ومما يدل على هذا أن أبا عبدالله وزير المهدى دخل عليه وكان قد وجد عليه فى أمر بلغه عنه ، وأبو العتاهية حاضر مجلسه ، فجعل

المهدى ، يشتم أبا عبيد الله و يتغيظ عليه ، ثم أمر به فجُر برجله وحبس ، ثم أطرق المهدى طويلا ، فلما سكن أنشده أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديهِ عذابا كلما كثرت عليهِ
تهين المكرمين لها بصُغْرٍ وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيتَ عن شىء فدَعْهُ وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدى وقال لأبى العتاهية: أحسنت ، فقام أبو العتاهية ثم قال: والله يا أميرالمؤمنين ما رأيت أحداً أشد إكراما للدنيا ، ولا أصْوَنَ لها ، ولا أشح عليها ؛ من هذا الذى جُرَّ برجله الساعة ، ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل هو وهو أعز الناس ، فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت ، فتبسم المهدى ودعا بأبى عبيد الله فرضى عنه ، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبى العتاهية .

فاذا قيل لنا كيف وصل هذا الفتى بائع الجِرارِ بالكوفة ، وصاحب عتبة جارية الخيزران ، إلى هذه المنزلة من علو النفس ، وصار بحيث يسمو على وزير المهدى ذلك السمو ، وكيف ينقلب هذا الشاعر الماجن ذلك الانقلاب الذى ينافى ماضيه كل المنافاة ، قلنا إنا لا نريد أن نتعجل درس هذا الشاعر العظيم ، ولا بد

أن ننتظر هذا الارهاص حتى يصل إلى غايته ، لنمضى فى درسه مرحلة مرحلة

مدائحه فيه

ومن مدائحه فى المهدى تلك القصيدة التى مدحه بها أمام بَشَّارٍ وأشْجَعَ السُّلَمِيّ وغيرهما من الشعراء ، وقد أذِنَ لهم المهدى فجلسوا وسكت أهل المجلس ، فسمع بشار حساً ، فقال لأشجع من هذا ؟ فقال أبو العتاهية ، فقال لاجزى الله من جمعنا معه ، ثم أمره المهدى فأنشد :

ألاَ ما لسيدتى مَالَهَا　　أدلاًّ فأحمل إدْلاَلَهَا
و إلا ففيم تَجنَّتْ وما　　جنيتُ سقى الله أطلالها
الا إن جاريةً للامام　　قد أُسْكِنَ الحسْنُ سربالها
مشتْ بين حورٍ قصار الخُطَى　　تُجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها　　وأتعب باللوم عذَّالها

فقال بشار لأشجع : ويْحَكَ يا أخا سُلَيْم رايت أحرَّ من هذا ؟ ينشد مثل هذا الشعر فى هذا الموضع ! حتى بلغ قوله :

أتتْهُ الخلافةُ منْقادةً　　اليه تُجرِّرُ أذيالها
ولم تك تصلح إلا له　　ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره　　لزُلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تُطِعْهُ بناتُ القلو ... بِ لمَا قَبِلَ اللهُ أعمالها

فقال بشار: أنظر ويحك ياأشجع، هل طار الخليفة من فراشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟

ملاءمة نسيبه لعصره

وقد بدأ أبو العتاهية هذه القصيدة بالنسيب على عادة الشعراء قبله، لأنه لم يكن إلى هذا الوقت ترك النسيب فى شعره، ولكنه لاينسب فيها بليلى ولا بهند كما ينسب غيره، وإنما ينسب بالجوارى البغداديات الحسان، ليكون شعره صورة صادقة للعصر الذى يعيش فيه، ولايجمد على تلك الأسماء التى كانت لا تزال تردَّدُ فى عصره

وإذا كان أبو العتاهية فى ذلك الوقت يبدأ فى المدح بالنسيب كغيره، فقد كان لايُعْنَى بتطويله كما يعْنَوْن، بل يُلِمُّ به إلْمَاماً، ثم يدخل فى مقصده، قال صاحب الأغانى: حدثنا الغلابى، قال حدثنا عبدالله بن الضحاك أن عمر بن العْلاء مولى عمر بن حُرَيْثٍ صاحب المهدى كان مُمَدَّحاً، فمدحه أبو العتاهية فأمر له بسبعين ألف درهم، فأنكر ذلك بعض الشعراء، وقال: كيف فعل هذ بهذا الكوفى ؟ وأى شىء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك فأحضر الرجل وقال له: والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه، ويتعاطاه فلا يحسنه، حتى يُشَبِّبَ بخمسين بيتا؛ ثم يمدحنا ببعضها؛ وهذا كأن المعانى تجمع له، مدحنى فقصر التشبيب وقال:

إنى أمنتُ من الزمان وريْبِهِ لَمَّا علقتُ من الأمير حِبالاَ
لو يستطيع الناسُ من إجلاله لَحَذَوْا له حُرَّ الوجوه نِعالا
إنَّ المطايا تشتكيك لأنها قطعتْ إليك سَبَاسِباً ورمالا
فاذا وَرَدْنَ بنا وردن خَفَائفاً وإذا صَدَرْنَ بنا صدرن ثِقالا

غضب الهادى عليه

وكان أبو العتاهية فى عهد المهدى يلازم ابنه هارون ، وكان ابنه وولى عهده موسى الهادى يَجِدُ على أبى العتاهية لملازمته أخاه دونه ، فلما وَلِىَ بعد أبيه المهدى أراد أن يُقْصِىَ أبا العتاهية عن هارون فلم يطعه ، ثم أمره أن يخرج معه إلى الرِّىِّ فأبى ذلك ، ولكنه لم يلبث أن خافه وتهيب أن يبطش به ، وكانت الملوك فى عهده لا تحتمل مثل هذا الاباء من رعيتهم ، ولا تطيق منها مثل هذا الاعتداد بالنفس ، ولا ترى لها أن تحافظ على عهدها مع من ترضى عنه ، فقال أبو العتاهية يستعطفه :

ألاَ شافعٌ عند الخليفة يشفعُ فيدفع عنَّا شرَّ ما يتوقعُ
وإنى على عُظْمِ الرجاء لخائفٌ كأنى على رأس الأسنَّةِ تُشْرَع
يُرَوِّعُنِى موسى على غير عَثْرَةٍ ومالى أرى موسى من العفو أوسع
وما آمِنٌ يمسى ويصبح عائذاً بعفو أمير المؤمنين يُرَوَّع

وهو فى هذا الاستعطاف لا ينزل إلى حد الذلة والخنوع ،

وامتهان كرامة النفس وعزتها ، ولا يقول فى ذلك ما قاله النابغة الذُّبْيَانِىُّ قبله للنُّعمان بن المنذر :

فإنِ أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلَمتَه

وإن تك ذا عُتبى فمثلُكَ يُعتِبُ

بل يخاطب الهادى باسمه ، ولا يرى له حقا فى ترويعه من غير ذنب جناه ، وينصف نفسه فى هذا الموقف الذى تجحد فيه النفوس ، وإن كان يفعل هذا فى لين ورفق ، ويجمع بينه وبين الاستعطاف وطلب العفو

وقد روى صاحب الأغانى أنه ولد للهادى ولد فى أول يوم وَلِىَ فيه الملك فدخل أبو العتاهية عليه فأنشده : رضاه عنه

أكثَرَ موسى غيظ حُسَّادِهْ	وزَيَّنَ الأرضَ بأولادِهْ
وجاء من صُلبِهِ سيِّدٌ	أصْيَدُ فى تقطيع أجداده
فاكْتَسَتِ الأرض به بهجةً	واستبشر المُلْكُ بميلاده
وابتسم المنبر عن فَرْحَةٍ	عَلَتْ بها ذِرْوَةَ أعواده
كأنَّنى بعد قليل به	بين مَوَاليه وقُوَّاده
فى مَحْفِلٍ تخفق راياتُهُ	قد طَبَّق الأرض بأجناده

فأمر له الهادى بألف دينار ، وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه

فرضى عنه ، وهذه الرواية لا تنافى ماقدمنا من سخطه عليه فى أول ولايته ، لأن الهادى حينما أتى إليه أبو العتاهية يهنئه بذلك ظن أنه سينقطع عن أخيه هارون فرضى عنه ، ووصله بتلك الدّنانير ، فلما رآه لم ينقطع عن أخيه عاد فسخط عليه ، ولعل هذه الرواية غير صحيحة ، لأنه لا يعقل أن يُعْنَى أبو العتاهية بتهنئة الهادى بذلك المولود فى أول يوم يلِي فيه الملك ، ولا يُعْنَى بتهنئته بذلك الملك العظيم الذى صار إليه ، والذى نرجحه أن تهنئته بذلك المولود لم تكن فى ذلك اليوم

مدائحه فيه

وقد رضى الهادى عن أبى العتاهية بعد استعطافه له ، فاتصل به أبو العتاهية كما اتصل بأبيه من قبله ، ومدحه بكثير من شعره ، وناله كثير من صِلاتِه وجوائزه ، ومما قاله فى مدحه على مذهب أبى نُوَاسٍ فى بدء المديح بذكر الخمر ووصف مجالسها :

لَهَفِي على الزَّمن الْقَصير بين الْخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ
إذ نحن فى غُرَفِ الجِنْا نِ نعوم فى بحر السرور
فى فتية ملكوا عِنَا نَ الدهر أمثالِ الصقور
ما منهمُ إلا الجسو رُ على الهوى غير الْحَصُور
يتعاوَرُون مُدَامَةً صهباءَ من حلب العصير
عذراءَ ربَّاها شعا عُ الشمس فى حَرِّ الْهَجير

لم تَدْنُ من نارٍ ولم يعلَقْ بها وَضَرُ القُدُور
ومُقُرّطَقٍ يمشى أما مَ القوم كالرّشأ الغَرير
بزجاجةٍ تستخرج السِّـ رَّ الدّفين من الضمير
زهراءَ مثل الكوكب الدُّ رِّىِّ فى كَفِّ المُدير
تَدَعُ الكريم وليس يدْ رِى ما .قبيلٌ من دَبير
وَمُخصَّرَاتٍ زُرْننا بعد الهُدُوِّ من الخُدُور
رَيَّا رَوَادِفهُنَّ يلْ بَسْنَ الخواتم فى الخُصُور
غُرَّ الوجوه مُحجَّبا تٍ قاصرات الطَّرْف حُور
مُتنعِّمات فى النَّعيـ مِ مُضَمَّخَاتٍ بالعَبَير
يَرفُلْنَ فى حُلَلِ المحا سن والمَجَاسِدِ والحرير
ما إن يَرَيْنَ الشمس إلاَّ القَرْطَ من خَلَلِ السُّتُور
وإلى أمين الله مَهْـ ربُنَا من الدهر العَثُور
وإليه أتعبنا المطا يا بالرَّوَاح وبالبُكُور
صُعْرَ الخدود كأنما جُنِّحْنَ أجنحة النُّسُور
مُتَسَرْبِلاتٍ بالظلا م على السُّهُولة والوُعُور
حتى وصلن بنا إلى رَبِّ المدائن والقصور
ما زال قبل فطامه فى سن مُكْتَهِلٍ كبير

ولم يزل أبو العتاهية مستقيم الحال مع الهادى حتى انتهى عهده ، ولا يكاد يفترق حاله معه عن حاله مع أبيه المهدى

نسكه فى عهد الرشيد

فلما جاء عهد هارون الرشيد بعد أخيه الهادى كان المظنون أن يكون حال أبى العتاهية معه أكثر استقامة من حاله مع أبيه وأخيه ، لما سبق من ملازمته له فى عهد أبيه المهدى ، وانقطاعه إليه انقطاعا كان يحسده عليه أخوه الهادى ؛ ولكن حال أبى العتاهية لم تجىء فى عهد الرشيد على ما كان يُقَدَّرُ لها ، ويظن أنها تكون عليه ، إذ أخذ أبو العتاهية يزهد فى دنيا هؤلاء الملوك ، و ينقطع إلى الشعر فى الزهد ، وكان الرشيد يغضب عليه بسبب ذلك ، ولا يرضى عنه إلا بعد أن يعود إلى ما كان عليه مع الملوك قبله ، وقد وردت فى ذلك روايات كثيرة نذكرها أولا ، ثم نذكر بعد ذلك رأينا فيها .

اختلاف رواياته

روى صاحب الأغانى أنه لما مات الهادى قال الرشيد لأبى العتاهية : قل شعراً فى الغزَل ، فقال : لا أقول شعرا بعد موسى أبداً ، فحبسه ، وأمر إبراهيم الموصلى أن يغنى ، فقال لا أغنى بعد موسى أبداً — وكان محسنا إليهما — فحبسه ، فلما شخص إلى الرَّقّة حفر لهما حفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال كونا بهذا المكان لا تخرجا منه حتى تشعر أنت ، ويغنى هذا ، فصبرا على ذلك مدة حتى

قال أبو العتاهية لإبراهيم : إلى كم يا هذا نلاج الخلفاء ؟ هلم أقل شعرا وتغنى فيه ، فقال أبو العتاهية:

بأبى من كان فى قلبى له مرة حب قليل فَسُرِقْ
يا بنى العباس فيكم ملك شعب الاحسان منه تفترق
إنما هارونُ خيرٌ كله مات كل الشر مذيوم خلق

وغنى فيه إبراهيم ؛ فدعا بهما الرشيد ، فأنشده أبو العتاهية ، وغناه إبراهيم ، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ، ومائة ثوب .

وفى هذه الرواية يبـــدأ أبو العتاهية مدحه بالنسيب ، ولـكنه نسيب متـكلف يتفق مع تـكلف أبى العتاهية لذلك الشعر ، واضطراره إليه لينجو به من السجن ؛ وقد اعترف أبو العتاهية بما أثبتناه فى قصة حبه بأدلتنا السابقة ، فذكر أنه لم يكن منه إلا حب قليل ثم سرق منه ، وهذا الحب القليل هو الحب الذى كان يتظاهر به لعتبة ؛ ويبدى فيه من ضروب الوجد ما يخيل للناس أنه عاشق صادق الحب

وروى عن محمد بن أبى العتاهيـة قال : كان أبى لايفارق الرشيد فى سفر ولا حَضَرٍ إلا فى طريق الحج ، وكان يُجْرى عليه

فى كل سنة خمسين ألف درهم ، فلما قدم الرشيد الرَّقة لَبِسَ أبى الصوف وتزهَّدَ ، وترك حضور المُنادَمَة ، والقول فى الغَزَل ، وأمر الرشيد بحبسه ، فلم يزل يكتب اليه الشعر يستعطفه ، حتى كتب اليه :

وكَلَّفْتَنى ماحلْتُ بينى وبينه ... وقلتُ سأبغى ماتريدوما تَهْوَى
فلو كان لى قلبان كَلَّفْتُ واحدا ... هواكَ وكَلَّفْتُ الْخَلِىَّ بما يَهْوَى

وروى عن محمد بن أبى العتاهية أيضا قال : لَبِسَ أبو العتاهية كساءَ صوف ودُرَّاعَةً ، وآلى على نفسه ألاّ يقول شعرا فى الغزل، وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه ، فقال :

ياابن عمِّ النبىّ سمعاً وطاعَهْ ... قد خلعنا الكساءَ والدُّرَّاعَهْ
ورجعنا الى الصناعة لمَّا ... كان سخْطَ الامام تَرْكُ الصناعه

فلم يزل الرشيد مُتَوَانيا فى إخراجه إلى أن قال :

أَمَا واللهِ إن الظلم لُؤمٌ ... وما زال المُسِىءُ هو الظَّلُومُ
إلى دَيَّانِ يومِ الدّين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم
لأمرٍ مَّا تصرَّمتِ الليالى ... وأمرٍ مَّا تَوَلَّيتِ النجوم
تموت غدا وأنت قَرِيرُ عينٍ ... من الغفلاتِ فى لُجَجٍ تعوم
تنام ولم تَنَمْ عنك المنايا ... تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يا نَؤُوم
سَلِ الأيام عن أُمَمٍ تقضَّتْ ... ستخبرك الْمَعَالِمُ والرُّسُوم

تروم الخلْدَ فى دار المنايا   وكم قد رام غيرك ماتروم

ألا يأيُّها الملك المْرجَّى   عليه نوَاهِضُ الدنيا تحوم

أَقِلْنى عَثْرَةً لم أجرِ منها   إلى لوم وما مثلى مَلُومُ

وخَلِّصْنى تُخَلَّصْ يوم بعثٍ   إذا للنـاس بُرِّزَتِ الجحيم

وروى مُخَارِق أن أبا العتاهية جاءه فقال : قد عزمت على أن أتزَوَّدَ منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ فقلت متى شئت ؛ فقال يكون ذلك فى غد ؛ فجئته فأدخلنى بيتا له نظيفا ؛ ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا ، ودعا بألوان من الأنبِذَة ، فقال اختر مايصلح لك منها ؛ فاخترت وشربت ، ثم صبَّ قدَحا وقال : غَنِّنى فى قولى :

أحمَدٌ قال لى ولم يَدْرِ مابى   أتُحِبُّ الغداةَ عتْبةَ حقَا

فغنيتهُ فشرب قدحا وهو يبكى أحرَّ بكاء ، ثم قال : غنى فديتك فى قولى :

ليس لمن لَيْسَتْ له حيلةٌ   موجودةٌ خيرٌ من الصَّبْرِ

فغنيته وهو يبكى ويَنْشِجُ ، ثم شرب قدحا آخر ، ثم قال : غنى فديتك فى قولى :

خَليليَّ مالى لاتزال مَضَرَّتى   تكونُ مع الأقدار حَتْماً من الحتْمِ

فغنيته إيَّاه ، وما زال يقترح على كل صوت غَنّى به فى شعره ، فأغنيه ويشرب ويبكى ، حتى صارت العَتَمَة ، فقال :

أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست فأمر ابنه و غلامه فكسرا كل مابين أيدينا من النَّبِيذ وآلته والمَلَاهى ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثيابا بيضاء من صوف ، ثم عانقنى و بكى ، ثم قال : السلام عليك ياحبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق الذى لا لقاء بعده ، وجعل يبكى ، فانصرفت و ما لقيته زمانا (١)

وحَدَّث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد فى عتبة فوعده بتزويجها ، وأنه يسألها فى ذلك ، فان أجابت جهَّزَها و أعطاه مالا عظيما ، ثم إن الرشيد سَنَحَ له شغْلٌ استمر به ، فحجب أبو العتاهية عن الوصول اليه ، فدفع الى مسرور الكبير ثلاث مَرَاوحَ ، فدخل بها على الرشيد وهو يبتسم ، وكانت مجتمعة ، فقرأ على واحدة منهن مكتوبا :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتى
فاذا لها من راحتيه شمِيمُ

فقال أحسن الخبيث ، وإذا على الثانية :

أعلقت نفسى من رجائك ماله
عَنَقٌ يَحُثُّ إليك بى ورسيمُ

(١) اختلاق هذه الرواية ظاهر جدا ، لأن مثل هذا الفسوق لايفعله شخص يعزم على مثل ماعزم عليه أبو العتاهية

فقال قد أجاد ، وإذا على الثالثة:

ولربما استأسيت ثم أقول لا

إن الذى ضمن النجاح كريم

فقال: قاتله الله ! ما أحسن ما قال ! ثم دعا به وقال:

قد ضمنت لك يا أبا العتاهية ،وفى غد نقضى حاجتك إن شاءالله، وبعث الى عتبة إن لى اليك حاجة فانتظرينى الليلة فى منزلك ، فأكبرت ذلك وأعظمته ، وصارت إليه تستعفيه ، فحلف ألا يذكر لها حاجته إلا فى منزلها ،فلما كان الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه، فقال لها: لست أذكر حاجتى أو تضمنين قضاءها، قالت : أنا أمَتُكَ وأمرك نافذ فى ما خلا أمر أبى العتاهية ، فانى حلفت لأبيك رضى الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر ، وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية ، كلما انقضت عنى حجة وجبت على أخرى، لا أقتصر على الكفارة ، وكلما أفدت شيئا تصدقت به إلا ما أصلى فيه ، وبكت بين يديه ، فرق لها ورحمها ، وانصرف عنها ، وغدا عليه أبو العتاهية فقال له الرشيد : والله ما قصرت فى أمرك ،ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لى بذلك ، وشرح له الخبر ، قال أبو العتاهية: فلما أخبرنى بذلك مكثت مليا لا أدرى أين أنا قائم

أو قاعد ؟ وقلت : الآن يئستُ منها إذ ردتك ، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك ، فلبس أبو العتاهية الصوف [١] وقال فى ذلك من أبيات :

قَطَّعتُ منك حبائل الآمال
وحططت عن ظهر المطى رحالى
ووجدت بَرْدَ اليأس بين جوانحى
فَغَنيتُ عن حِلٍّ وعن تَرْحالِ

وروى أبو سلمة الغَنَوِىّ أنه قال لأبى العتاهية : ما الذى صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ فقال : إذن والله أخبرك ، إنى لما قلت :

الله بينى وبين مولاتى	أبدت لى الصد والملالات
منحتها مهجتى وخالصتى	فكان هجرانها مكافاتى
هيمنى حبها وصيرنى	أحدوثة فى جميع جاراتى

رأيت فى المنام تلك الليلة كأن آتيا أتانى فقال : ما أصبت أحدا تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا

---

(١) هذه الرواية ظاهرة الاختلاق أيضا ، لأن أبا العتاهية لم يصل حبه لعتبة إلى هذه الدرجة التى بالغت فيها هذه الرواية

الله تعالى ! فانتبهت مذعورا ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل

اختلاق بعضها لتشويهه

فهذه الروايات فى سبب زهد أبى العتاهية متدافعة متضاربة ، وفى بعضها من الاختلاق ما قصد به تشويه زهد أبى العتاهية ، وإبطال أثر أشعاره الزهدية فى نفوس الناس ؛ لئلا يثوروا على تلك الحياة الناعمة التى أسرف فيها ملوكهم وعظماؤهم ، وهى أيضا لا تبين لنا كيف وصلت تلك النزعة الصوفية إلى نفس أبى العتاهية ، مع أنه كان فى ظاهره من أبعد الناس عنها ، ولا تفيد إلا أنها حالة طرأت عليه فى بغداد ، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة ، لأنها لم تعن بالكشف عن نفس أبى العتاهية ، وعن صلتها بتلك النزعة الصوفية التى صارت إليها ؛ وهذا هو الأمر الذى يجب أن يعنى به فيه ، ولا يكفى ما فى الرواية الأخيرة من إرجاع ذلك إلى تلك الرؤية المنامية ، لأنها إذا صحت لا تكون نتيجتها إلا أن يقلع عما كان فيه ، فلا تكفى وحدها فى الأخذ به إلى كل ذلك الغلو فى أمره ، وإلى تلك الحياة الجديدة التى تنافى كل المنافاة حياته الطويلة قبلها فى لهوه ومجونه

وكذلك لا تبين لنا تلك الروايات كيف يأخذ الرشيد على أبى العتاهية ترك القول فى الغزل ، وينكر عليه حياة الزهد بعد

حياة اللهو والمجون ، ويَزُجَّ به من أجل ذلك فى السجن ، ويذيقه عليه مرّ العذاب ، وهو الذى كان يأخذ على أبى نواس اندفاعه فى اللهو ، وأخذه فى الشعر بقول الغَزَل ، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذى سلكه مع أبى العتاهية ؟

إرجاعه إلى شأته

والحقيقة أن تلك النزعة الصوفية كانت قديمة عند أبى العتاهية ، وأن أمرها يرجع الى مبدإ أمره بالكوفة ، وأنه كان يخفى ذلك فى نفسه ، ليظهر به فى الوقت المناسب له ، فيؤثر به فى الناس جميعا ، لا فى نفسه وحده ، ودليلنا على ذلك هذه الرواية التى تفيد أن القول فى الزهد كان أول ما أخذ به فى شعره

روى محمد بن عبد الجبار الفَزَارِىُّ أن أبا العتاهيـة اجتاز فى أول امره وعلى ظهره قفصٌ فيه فَخَّار يدور به فى الكوفة ويبيع منه ، فمر بفتيان جلُوسٍ يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلّم ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يافِتْيان ، أراكم تَذَاكَرُون الشعر ، فأقول شيئا منه فتُجِيزونه ؟ فان فعلتم فلكم عشرة دراهم . وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا به وسخروا منه ، وقالوا نعم ، قال : لابُدَّ أن يشترى بأحد القَمْرَين رُطَبٌ يؤكل ، فانه قَمْر حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا ، فقال أجيزوا :

ساكنى الأجْدَاثِ أنتمْ

وجعل بينه و بينهم وقتا فى ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الخَطَر ، وجعل يهزأ بهم و تممه :

ساكنى الأجداث أنتم　　　مثلنا بالأمس كنتم

ليت شِعْرى ماصنعتم　　　أرَبِحتُمْ أم خسرتم

وهى قصيدة طويلة فى شعره [1]

ولاشك أن هذه نَزْعةٌ ظاهرة فى الزهد والتصوف ، وقدظهرت فيه كما تفيده هذه الرواية من أول أمره فى الشعر ، فاذا كان قد سار بعد ذلك فى غير سبيلها فان هذا يرجع الى أنه رأى أن يتصل بشعراء عصره فى الكوفة وغيرها، ليظهر أمره بينهم فى الشعر ، فأخفى من أجل هذا تلك النزعة فى نفسه ، وأخذ يسلك فى اللهو والشعر مسلك أولئك الشعراء ، حتى ظهر أمره بينهم ، ووصل الى مايريد من العظمة والشهرة ، ورأى أنه إذا ظهر بعد هذا بما يخفيه من تلك النزعة كان له أثره فى الناس عموما ، وفى ملوك بنى العباس خصوصا ، فأخذت نفسه تنازعُه ميلها الى الزهد ، والى اعتزال هؤلاء الملوك الذين لم يكن مخلصا فى الاتصال بهم ، وإنما كان يريد أن يظهر أولا على حسابهم ، ثم يأخذ فى سبيل تعكر عليهم صفو حياتهم الناعمة ، وتُطلع الرعية على إسرافهم فيها ، وعلى ماهم فيه من غفلة

(١) بحثنا عنها فى ديوانه فلم نجدها

عن الآخرة ، وانصراف عن مناهج الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين ، ولم يكن يريد من كل هذا إلا أن يصل الى أغراض سياسية له ، سنبينها بعد هذا فى موضعها ، وقد عرف بنو العباس غرضه من ذلك فحاربوه فيه وحبسوه من أجله ، لا من أجل تلك النزْعة الصوفية التى كان ينزع اليها كثير من رجال عصره ، ولم يختص بها وحده

محاولته له فى عهد المهدى

وقد أراد أبو العتاهية أن يظهر بتلك النزعة فى عهد المهدى ، ولكنه كان أشد بطشا من الرشيد ، فلقى من بطشه ماجعله يُقلع عنها ، ولا يعود اليها فى عهده وعهد ابنه الهادى ، روى ابن خَلّكان أن أبا العتاهية ترك قول الشعرفى عهد المهدى ، فأمر بحبسه فى سجن الجرائم ، فلما دخله دهش و رأى منظرا هاله ، فطلب موضعا يأوى فيه ، فاذا هو بكهل حسن البزة والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصده وجلس من غير سلام عليه ، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكث كذلك مليا ، و إذا الرجل ينشد :

تعوّدتُ مسّ الضّرّ حتى ألفتُهُ
وأسلمنى حُسْنُ العزاء الى الصبْر

وصيرنى يأسى من الناس واثقا
بحسن صنيعِ الله من حيث لاأدرى

قاستحسن أبو العتاهية البيتين ، وثاب إليه عقله ، فقال له : تفضَّل أعزَّك الله عليَّ باعادتهما ، فقال : يا إسماعيل ، وَيْحكَ ما أسوأ أدبك ، وأقلَّ عقلك ومروءتك ، دخلت فلم تسلم عليَّ تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألتنى مسألة الوارد على المقيم! فقال له : اعذرنى متفضِّلا ، فَدُون ما أنا فيه يُدْهِشُ ، قال : وفيم أنت؟ تركت الشعر الذى هو جاهك عندهم ، وسببك إليهم ، ولا بد أن تقوله فَتُطْلَق ، وأنا يدعى الساعة بى ، فأُطْلَبَ بعيسى بن زيد ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان دَلَلْتُ عليه لقيت الله تعالى بدمه ، و إلا قتلت ، فأنا أولى بالحَيْرَة منك ، ثم دعى بهما ، فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى ، فأمر المهدى بضرب عنقه ، ثم قال لأبى العتاهية : أتقول الشعر أو أُلْحِقُكَ به ؟ قال بل أقول ، فأمر به فأطلق

فأرجأ أبو العتاهية ظهوره بتلك النزعة إلى عصر الرشيد ، لأنه كان أقل بطشاً من أبيه وأخيه ، فكان يحبس أبا العتاهية ثم يعفو عنه ، ولم يهدده بالقتل كما هدده به أبوه المهدى

سر إنكار العباسيين له

ولا غرابة فى أن يهتم هؤلاء الملوك بأمر أبى العتاهية وأشعاره فى الزهد ، لأنهم خافوا منها على سلطانهم ، وخشوا ثورة النفوس على ترف ملكهم . وقد كانوا يشاهدون افتتان الناس بشعره ، بعد أن قرب إليهم ألفاظه ومعانيه ، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء

السابقون ، فكان شعره يلهج به العابد فى خلوته ، والراهب فى صومعته ، والملاح فى سفينته ، والفلاح فى حقله ، والعامل فى مكان عمله ، حتى صار أبو العتاهية شاعر الشعب فى ذلك العصر ، وحامل لواء الشعر الموافق لِرَغبةِ الرعية ، الملائم لأدب الاسلام الصحيح ، وإنا نسوق هنا ما يدل على مقدار تَعَلُّقِ الناس بشعر أبى العتاهية ، وافتتانهم به افتتاناً لم يبلغه شاعر قبله

قال يحيى بن سعيد الأنصارى : مات شيخ لنا ببغداد ، فلما دفناه أقبل الناس يُعَزُّونه ، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد ، فعزاه ثم أنشده :

لا تأمنِ الدهر والْبَسْ لكل حالٍ لباسا
لَيدْفِنَنَّا أناسٌ كما دفنَّا أُناسا

فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبى العتاهية

وقال محمد بن صالح العَلْوىّ أخبرنى أبو العتاهية قال : كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزَّلَّالاتِ إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يُغَنُّون فيه ؛ فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية ، وهو فى الحبس ، قال فوجَّه إلىَّ الرشيد : قل شعراً حتى

أسمعه منهم، ولم يأمر باطلاقى، فغاظنى ذلك، فقلت: والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسرّه، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين، فلما ركب الحرّاقة سمعه، وهو:

خانكَ الطّرْفُ الطّموحُ أيُّها القلبُ الجريحُ
لدَواعي الخير والشّرّ دُنوٌّ ونُزوح
هل لمطلوبٍ بذنبٍ توبةٌ منه نَصوح
كيف إصلاحُ قلوبٍ إنما هُنَّ قُروح
أحسَنَ الله بنا أنَّ الخطايا لا تفوح
فاذا المستورُ منَّا بين ثوبيه فُضوح
كم رأينا مِنْ عزيزٍ طُويتْ عنه الكُشوح
صاح منه برحيلٍ صائحُ الدهر الصَّدُوح
موت بعض الناسِ فى الأرضِ على قوم فُتوح
سيصير المرءُ يوماً جسداً ما فيه رُوح
بين عينَىْ كلِّ حىٍّ عَلَمُ الموت يلوح
كلُّنا فى غفلة والموت يَغْدُو وَيَرُوح
لبَنِي الدُّنيا من الدُّنيا غَبُوقٌ وَصَبُوح
رُحْن فى الوَشْيِ وأصبحنَ عليهنَّ المسوح

كلُّ نَطّاحٍ من الدّهـ ـرِ لَهُ يومٌ نَطُوحُ

نُحْ على نَفْسِكَ يا مِسْـ ـكينُ إن كنت تنوحُ

لَتَمُوتَنَّ وإن عُمّـ ـرْتَ ما عُمِّرَ نوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً فى وقت الغضب والغلظة ، فلما رأى الفضل بن الرَّبيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ما ليس من سجيتها فى الزهد لأغراض له فى ذلك — ما رواه صاحب الأغانى قال : حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار ، قال حدثنى ابن أبي الدنيا ، قال حدثنى الحسين بن عبد ربّه ، قال حدثنى على بن عُبَيْدَةَ الريحانى ، قال حدثنى أبو الشَّمَقْمَقِ أنه رأى أبا العتاهية يحمل زامِلَةَ المُخَنَّثِينَ ، فقلت له : أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك ؟ فقال له : أريد أن أتعلم كِيادَهُمْ ، وأتحفظ كلامهم

تردده ايام الرشيد

وقد كان أبو العتاهية يأتى بما يأمره به الرشيد فى ذلك ليتقى به حبسه وسجنه ، وكان فى هذا يأخذ بالتقية التى يأخذ بها الشيعة ،

وهو على ماسيأتى من رجالهم ، فجرى فى ذلك مع الرشيد كما جرى فيه مع الهادى والمهدى ؛ وكان إذا خرج من سجنه وجرى على ما يهواه الرشيد منه ؛ مضى كأن لم يكن هناك شىء يخفيه منه فى دخيلة نفسه ، ومدحه بشعره أحسن مدح ، وأخذ عليه منه جزيل صِلَاتِهِ وجوائزه ، حتى إذا غلبته نفسه نَبَا عنه ، وأخذ فى زهده ونُسُكه ، وأخذ الرشيد فى الغضب عليه وسجنه وتعذيبه ، وأبو العتاهية رابح فى الحالين ، قاضٍ لنفسه غرضَهَا من مال العباسيين ، ولمذهبه السياسى الذى سنبينه غرضه من ذم دنياهم ، والنَّعْيِ على ما فى دولتهم من فساد دينى وسياسى واجتماعى

مدائحه فيه

وقد أخبر ابن أبى العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقَطَعَ الناس ، فذكره الرشيد فعرف خبره ، فقال : قولوا له صرت زِيرَ نساء ، وحِلْسَ بيت ، فكتب إليه أبو العتاهية :

بَرِمْتُ بالناس وأخلاقهم ... فصرتُ أستأنس بالوَحْدَهْ
ما أكثر الناسَ لعَمْرِى وما ... أقلَّهُمْ فى مُنْتَهى العِدَّهْ

ثم قال : لا ينبغى أن يمضى شعر إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدح له ، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها ، وهى :

عادَ لى من ذكره نَصَبُ ... فدموعُ العين تنسكبُ

وكذاك الحُبُّ صاحِبُهُ يعتريه الهَمُّ والوصَبُ

خَيرُ من يُرْجَى ومن يَهَبُ مَلِكٌ دانَتْ له العرب

وحَقِيقٌ أن يُدَانَ له من أبوهُ للنبيِّ أب

ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحلْتُ عن الرَّبْعِ المُحِيلِ قَعُودِى
إلى ذِى زُحُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ

وَرَاعٍ يُرَاعى الليلَ فى حفظ أُمَّةٍ
يدافع عنها الشر غير رَقُودِ

بألويةٍ جبريل يقـدم أهلها
ورايات نصر حوله وبُنود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها
مفارقـة ليست بدار خلود

وشد عُرَى الاسلام منه بفتيةٍ
ثلاثة أمـلاك ولاةِ عهود

هُمُ خـير أولاد لهم خـير والد
لهم خير آباء مضت وجـدود

بنو المصطفى هارونَ حول سريره

فَخَيرٌ قيام حوله وقعود

تُقَلِّبُ ألحاظَ المهابة بينهم

عيونُ ظباءٍ فى قلوب أسود

خدودهُمُ شمسٌ أتت فى أهلّةٍ

تبدّتْ لِرَاءٍ فى نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلةٍ ما وصل مثلها شاعراً قط

نسكه فى عهد الأمين

ثم انقضى عهد الرشيد وجاء بعده عهد الأمين ، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ،فاضطرب أمر الدولة ، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضى فى سبيله من الزهد ، واستخدم شعره فى دعوة الأمة إليه ، وتهوين أمر الدنيا التى فتنوا بها عن الآخرة ، ولم يعد يقول الشعر فى التَّغَزُّلِ والمجون وما إليهما ، ولكنه لم يقطع صلته بملوك العباسيين ، ولم يتحَرَّج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً فى أموالهم ،وأخذ صِلاَتِهِمْ وجوائزهم، وسنتكلم بعد فى أمر ذلك الزهد ، واجتماعه مع ذلك الطمع فى أموال العباسيين

حدَّث عِكْرِمَة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت

مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة ، فاذا شيخ عليه جماعة ، وهو ينشد :

لَهفِي على ورَقِ الشباب وغصونه الخُضْرِ الرطابِ
ذهب الشباب و بان عنى غير منتظر الاياب
فلأبكينّ على الشبا ب وطيب أيام التّصَابى
ولأبكينّ من البِلَى ولأبكين من الخِضاب
إنى لآمُلُ أن أُخَلّدَ والمَنْيةُ فى طِلاَبى

قال : فجعل ينشدها و إن دموعه لتسيل على خدّيه ، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن مِلتُ فكتبتها ، وسألت عن الشيخ فقيل لى : هو أبو العتاهية

وحدّثَ جبيب بن الجَهْم النُّمَيْرِىُّ قال : حضرت الفضل بن الربيع مُنَجِّزاً جائزتى وفرضى ،فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فاذا عون حاجبه قد جاء فقال : هـذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفِنِي منه الساعة يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فقال : إنه على الركوب إلى امير المؤمنين فأخرج من كُمِّهِ نعلا عليها شِرَاكٌ مكتوب عليه:

نعلٌ بعثتُ بها ليلبسها قَرْمٌ بها يمشى إلى المجدِ

لو كان يصلح أن أُشرّكها

خدّى جعلتُ شِراكَهَا خدى

ثم قال لعون : قل له إن أبا العتاهية أهداها إليك ، فدخل بها عليه ،فقال له: احملها معنا، فلما دخل على الأمين أخبره بها ، وأنه رأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها، لِمَا وُصِفَ به لابسها، فقرأ الأمين البيتين ،فقال: أجاد والله ، وما سبقه إلى هذا المعنى أحد ، هَبُوا له عشرة آلاف درهم، فأخرجت والله فى بَدْرةٍ وهو راكب على حماره، فقبضها وانصرف

تقريب المأمون له

ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبى العتاهية فى عهده ، وكان المأمون أحسن حالا من الملوك العباسيين قبله ، فقرب أبا العتاهية منه ، وأكثر من بِره وَصِلَتِهِ والاحسان إليه بما لم يفعل مثله معه سَلَفَه ، ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى إلى المأمون بُرْداً ومِطْرفاً ونعلا سوداء ومَسَاويك أَرَاكٍ ، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم

ودخل على المأمون مرة فأنشده :

ما أحسن الدنيا وإقبالها

إذا أطاع الله من نالها

من لم يُوَاسِ الناس من فضلها
عَرَّضَ للإِدْبَارِ إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثانى فما صنعت فيه شيئا ، الدنيا تدبر عَمَّنْ واسى منها أو ضن بها ، وانما توجب السماحة بها الأجر ، والضنُّ الوزر ، فقال : صدقت ياأمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، فأمر المأمون بأن يدفع إليه عشرة آلاف درهم ، لاعترافه بالحق

فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:

كم غافل أَوْدَى به الموتُ
لم يأخذ الأُهْبَةَ لِلْفَوْت
من لم تَزُلْ نعمته قبلهُ
زال من النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ،الآن طَيَّبْتَ المعنى ،وأمر له بعشرين ألف درهم.

أثر زهدياته في ملكه

وهذا كله يدل على مقدار ما كان من الاتصال الروحى بين المأمون وأبى العتاهية ، فاذا رأينا المأمون يزهد بعدهذا فى ذلك الملك العظيم الذى ورثه عن سلفه من العباسيين ،ويؤثر به من بعده الامام عليًّا الرِّضَى من آل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فيزوجه بنته أم حبيب ، ويجعله وَلِىَّ عهده ، ويضرب اسمه على

الدينار والدرهم — فان لشعر أبى العتاهية أعظم الأثر فى ذلك كله، وهذه هى الغاية التى جاهد من أجلها بشعره فى تزهيد الناس فى هذه الدنيا، وفيما فيها من ملك وغيره، فقد سعى فى تزهيد الناس فى كل أسباب الدنيا، ونعى عليهم ما هم فيه من التكالب عليها، ليزهد العباسيين فى التكالب على ذلك الملك الذى استأثروا به، ويعودوا به إلى سيرته الأولى، فيتولاه أصلح الناس له، ولا يستأثر به أحد على غيره، وهذا هو ما فعله المأمون مع الامام على الرضا، فقد كان المأمون بمدينة مَرْو ومعه فيها هذا الامام، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء، واستدعى الامام علياً فأنزله أحسن منزله، وجمع خوَاصّ الأولياء، وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم، فلم يجد فى وقته أحداً أفضل ولا أحقّ بالأمر من على الرضا، فبايعه وأمر بازالة السواد من اللباس والأعلام، وقد قام بسبب هذا تلك الفتنة المعروفة بين المأمون وعمه إبراهيم بن المهدى، فقضت على تلك الفكرة الصالحة، ومضى العباسيون فى أمرهم إلى أن ملكهم خَوَلُهُمْ وجنودهم من الترك وغيرهم، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التى انتهى بها، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون ما أراده من ذلك العمل الصالح، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا

عليه من الشُّورَى فى عهد النبوة والخلافة

وفاته — وقد بلغت سن أبى العتاهية فى عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله فى تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنه ٢١١ هـ

وروى محمد بن أبى العتاهية قال : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه:

إلٰهى لا تعــذبنى فإنى ... مقِرٌّ بالذى قد كان منى

فمالى حيــلةٌ إلا رجائى
لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وكم من زَلَّةٍ لى فى الخطايا
وأنت علىَّ ذو فضل ومَنِّ

إذا فكرت فى ندمى عليها
عضضتُ أناملى وقرعت سنى

أُجَنُّ بزهرة الدنيـا جنوناً
وأقطع طول عمرى بالتَّمَنِّى

ولو أنى صدقت الزهد فيها
قلبتُ لأهلهـا ظهر المِجَنِّ

يظن النـاس بى خـيراً وإنى
لَشَرُّ الخـلق إن لم تعفُ عنى

ثم أمر أن يكتب على قبره:

أُذْنَ حَيٍّ تَسَمَّعِي إسمعى ثم عِي وَعِي

أنا رَهْنٌ بمضجعى فاحذرى مثل مصرعى

عشتُ تسعين حجّةً أسلمتنى لمضجعى

كم ترى الحْيَّ ثابتاً فى ديار التزعزع

ليس زادٌ سوى التُّقى فخذى منه أو دعِي

وقد ذكر ابن خلّكان أن قبره على نهر عيسى ببغداد،

قبالة قنطرة الزياتين م؟

عقيدته الدينية والسياسية

السياسة والزندقة

قد طعن الناس فى دين أبى العتاهية ، وألصقوا به تهمة الزندقة التى شاع الاتهام بها فى ذلك العصر ، واتخذها العباسيون وسيلة لإرهاب من تحدثه نفسه بمخالفتهم ، أو الولاء لبنى عمهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان بنو العباس قد نقضوا ما اتفقوا عليه مع بنى على قبل قيام دولتهم ، من جعل الأمر شركة بينهم ، فاستأثروا به لأنفسهم ، وكان هذا سبباً لثورة بنى على عليهم ، وقد ثار معهم كثير من العلماء والعظماء ، وتشيع لهم كثير من الناس على العباسيين ، كما كانوا يتشيعون لهم على بنى مروان

تشيعه للعلويين

وكان أبو العتاهية يتشيع للعلويين ، ولم يكن مخلصا للعباسيين فى اتصاله بهم ، وفيما مدحهم به من شعره ، وكان لنشأته بالكوفة تأثير فيما ذهب إليه من ذلك التشيع ، لأنها كانت مهد التشيع للعَلَوّيين ، من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة لخلافته ، وآثرها على المدينة التى كانت عاصمة الخلافة قبله ، وكان العباسيون يستريبون بأبى العتاهية من أجل ذلك ، فأحاطوه بجواسيسهم ، وحاولوا أن يلصقوا به تهمة الزّندقة ليرهبوه بها ، ويلجئوه إلى الميل إليهم .

خوفاً من نقمتهم، ولكنه أمكنه مع هذا أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التى أراد أن يفتح بها عيون الناس إلى عيوب حكمهم، وإلى انغماسهم فى الملاهى واللذات ، وانحرافهم عن سنن الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين ، وقد أعياهم هذا السلاح الذى يحاربهم به أبو العتاهية ، فكانوا يأخذونه باللين مرة وبالشدة مرة أخرى، ولكن أخذهم له بذلك كان أدعى إلى افتضاح أمرهم ، لأن مثل هذا لا يصح أن يؤاخذ عليه ، ولا أن ينتقم من صاحبه .

رميه بالزندقة

فلم يجدوا إلا أن يحاربوا دعايته الشعرية بتشكيك الناس فى عقيدته الدينية ، ليضعف أثر شعره فيهم ، ولا يصل إلى ما يريده منهم ، وقد اغتر بعض الناس بما كان يفتريه أولئك الجواسيس على أبى العتاهية ، فطعنوا به فى عقيدته الدينية ، واختلقوا عليه مثل ما كان يختلقه عليه أولئك الجواسيس ، ومن ذلك ما روى النَّسَائىُّ عن محمد بن أبى العتاهية أنه كان لأبيه جارة تشرف عليه، فرأته ليلة يَقْنُتُ فروت عنه أنه يكلم القمر، واتصل الخبر بحَمْدَوَيهِ صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها ليلا ، وأشرف على أبى العتاهية فرآه يصلى ، فلم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئا

وكان أكثر الناس تشنيعاً عليه بِتُهْمَةِ الزندقة رجاء بن سَلَمَةَ ومنصور بن عمار ، وقد حدث العباس بن ميمون عن رجاء قال : سمعت أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة — عَمَّ يَتَسَاءلُونَ — ثم قلت قصيدة أحسن منها ،قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا

ولما قص منصور على الناس مجالس البعوضة قال أبو العتاهية : إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفى ، فبلغ قوله منصوراً ، فقال أبو العتاهية زِنديقٌ ، أما ترونه لا يذكر فى شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت مُتَّهَماً
إذ عبتَ مِنْهم أُموراً أنت تَأْتيها

كالمُلْبِس الثَّوْبَ مِنْ عُرْىٍ وعورتُه
للناس باديةٌ ما إن يُواريها

فأعظَمُ الإِثم بعد الشرك نعلمه
فى كل نفس عماها عن مساويها

عِرْفَانُهَا بعيوب الناس تُبْصِرُها
منهم ولا تبصر العيب الذى فيها

فلم تمض إلا أيام حتى مات منصور ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يغفر الله لك أبا السّرِىّ ما كنت رميتنى به

وحدث محمد بن أبى العتاهية قال : لما قال أبى فى عتبَة :

كأنما عتبةُ من حسنها دُمْيَةُ قَسّ فَتَنَتْ قَسَّها
يارَبِّ لو أنْسيْتَنيهَا بمَا فى جنة الفِرْدَوْس لم أنسَها

شَنَّع عليه منصور بن عمار بالزندقة ، وقال : يتهاون بالجنة ، ويبتذل ذكرها فى شعره بمثل هذا التهاون .

وشَنَّع عليه أيضا بقوله :

إنّ المليك رآكِ أحـ ـسَنَ خلقِهِ ورأى جمالكْ
فحَذَا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالِكْ

وقال : أيُصَوّرُ الحور على مثال امرأة آدَمِيةٍ ، والله لا يحتاج إلى مِثال ، وأوقع له هذا على ألسنة العامة ، فلقى منهم بلاء

وسماجة هذا النقد ظاهرة كل الظهور ، فانه لا يصح أن يصل الدين فى الحَرَج على الشعراء إلى هذا الحد ، وأين ابن عمار فى هذا من عبد المليك بن مَرْوَان ، وقد اجتمع ببابه عمر بن أبى ربيعة وكُثَيِّر عَزَّةَ وجميل بُثَيْنَةَ ، فقال لهم : أنشدونى أرق ماقلتم فى الغوانى ، فأنشده جميل :

حلفتُ يميناً يا بُثَيْنَة صادقاً

فان كنتُ فيها كاذباً فعميتُ

إذا كان جلدٌ غير جلدك مسَّنى

وباشرنى دُونَ الشِّعارُ شَريتُ

ولو أن راقى الموت يرْقِى جنازتى

بمنطقها فى الناطقين حَيِيت

وأنشد كُثَيِّرٌ :

بأبى وأمِّى أنتِ من مظلومة

طَبِنَ العدوُّ لها فغيَّرَ حالها

لو أنَّ عزَّةَ خاصمتْ شمس الضُّحى

فى الحسن عند مُوَفّق لقَضَى لها

وسعى إلىَّ بصرْم عزة نسوةٌ

جعل المليكُ خدودهنَّ نعالها

وأنشد ابن أبى ربيعة :

ألا ليت قبرى يوم تقْضَى منيَّتِى

بتلك التى من بين عينيكِ والفَمِ

وليت طَهُورى كان ريقك كلّهُ

وليت حَنُوطِى من مُشَاشِك والدَّم

ألا ليت أمّ الفضل كانت قرينتى

هنا أو هنا فى جنّة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه : أعط كل واحد منهم ألفين ، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف ، ولكن هذا عصر وذاك عصر ، والناس فى كل عصر على دين ملوكهم ؛ وإذا كان العباسيون قد تغالوا فى أخذ الناس بالزندقة فى دولتهم ، فلم لا يتغالى ابن عمار وأشباهه فى ذلك أيضا ؟

وكان أبو العتاهية ينكر ما ينسب إليه من تلك التهمة الباطلة؛ حدث الخليل ابن أسد النوْشَجَانِىُّ قال : جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال : زعم الناس أنى زنديق ، والله ما دينى إلا التوحيد ، فقلنا له : فقل شيئا نتحدث به عنك ، فقال :

ألا إننا كلنا بائدُ ... وأىُّ بنى آدمٍ خالدُ

وَبدْؤُهم كان من ربهم ... وكُلٌّ إلى ربه عائد

فياعجبا كيف يعصى الإلا ... ه أم كيف يجحده الجاحد

ولله فى كل تحريكةٍ ... وفى كل تسكينةٍ شاهد

وفى كل شىء له آيةٌ ... تدل على أنه الواحد

والحقيقة أن أبا العتاهية كان يذهب إلى مذهب الزيدية تحقيق عقيدته

البُتْرِيّة (١) وهم من شيعة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكانوا أخف الشيعة فى أمر الشيخين أبى بكر وعمر ، وأقربهم إلى إلى مذهب أهل السُّنَّة ، وكان أبو العتاهية لا ينتقص أحدا من المسلمين؛ ولا يرى الخروج على السلطان ، وكان مُجْبِرًا ، يقول بالتوحيد ، ويزعم أن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم بنى العالم هذه البِنْيَة منهما ، وهو حادث العين والصنعة ، لا محدث له إلا الله تعالى ، وسيرد الله كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا ، وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقـدر الفـكر والاستدلال والبحث طِباعاً ، ويقول بالوعيد وتحريم المـكاسب .

ولما ظهر الخلاف فى خلق القرآن كان ممن يقولون بخلقه ، وقد حدث شُعَيْبٌ صاحب ابن أبى دُؤَاد قال : قلت لأبى العتاهية : آلقرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : أسألتنى عن الله أم عن غير الله ؟ قلت : عن غير الله ، فأمسك ، وأعدت عليه فأجابنى هذا الجواب ، حتى فعـل ذلك مرارا ، فقلت له : مالك لا تجيبنى ؟ قال : قد أجبتك ، ولكنك حمار

---

(١) تنسب إلى المغيرة بن سعد ، وكان يلقب بالابتر ، وقد ذكرهم المسعودى فى مروج الذهب ص ١٤٢ جـ ٣ باسم الابترية

فهذه هى عقيدة أبى العتاهية ، ولا شىء فيها مما ينسبه اليه أولئك الناس من الزندقة ، وإن كان يخالف فيها المعروف من مذهب الجماعة ، فليس كل من خالفهم يكون زنديقا ، لأن الفرق الاسلامية لا تكاد تنحصر ، واسم الاسلام يجمعها كلها ، والزنديق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الاسلام ، فلا يكون من الاسلام فى شىء

إنكار التجسس الديني

ولا نحب أن نختم هذا الفصل بدون أن ننكر على العباسيين ما ابتدعوه من نظام التجسس على الناس فى عقائدهم ، وما كانوا يأتونه من القتل على تهمة الزندقة ، فالاسلام لا يعرف شيئا من ذلك التجسس على العقائد ، ولا يبيح القتل على تلك التهمة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أعمل بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد عاش المنافقون معه فى المدينة ، ولقى من كيدهم له ما لقى ، ومع هذا كان يقبل منهم ما يظهرونه من الاسلام ، ولم يكن له جواسيس على عقائدهم كجواسيس العباسيين ، والحقيقة أن هؤلاء الجواسيس كانوا جواسيس سياسيين ، وأن غرض العباسيين منهم لم يكن إلا إرهاب خصومهم باسم الدين

زهده وتكسبه بالشعر

طعنهم به فى زهده

كان أبو العتاهية شاعرا يتكسَّبُ بشعره ، وقد تكسب به قبل أخذه بالزهد وبعد أخذه به ، فلم ينقطع عن العباسيين وقبول جوائزهم من عهد اتصاله بالمهدى ، إلى أن مات فى عهد المأمون ، وقد يبدو لأول النظر أن الزهد والتكسب بالشعر لا يجتمعان ، وبهذا طعن خصوم أبى العتاهية عليه فى زهده ، وانتقص منه منافسوه فى الشعر؛ وحملوه على المخادعة والرياء ، ومن ذلك أن المأمون أُنْشِدَ بيت أبى العتاهية فى سَلْمٍ الخاسر :

تعالَى اللهُ ياسَلْمَ بن عمْرٍو   أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

فقال المأمون: إن الحرص لمفسد للدين والمروءة، والله ما عرفت من رجل قطُّ حرصا ولا شرَهاً فرأيت فيه مُصْطَنَعاً . فبلغ ذلك سلما فقال : وَيْلي على المخنَّث الْجَرَّارِ الزِّنْديق ، جمع الأموال وكنزها؛ وعبأ البِدَرَ فى بيته ، ثم تزَهَّدَ مُرَاءاةً ونفاقا ، فأخذ يهتُفُ بى إذا تصدَّيتُ للطلب

وقد اجتمع أبو العتاهيـة مع جماعة عند قُثَمَ بين جعفر بن سليمان ، فأخذ ينشد فى الزهد ، فطلب قُثَمُ الْجَمَّازَ فأُحْضِرَ إليه ،

وأبو العتاهية ينشده ، فانشأ الجماز يقول :

ما أقبح التَّزْهِيدَ من واعظٍ   يُزَهِّدُ الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقاً   أضحى وأمسى بَيْتُهُ المسجد
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقُهُ   والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى   يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية إليه ، فقال من هذا ؟ قالوا الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتصَّ لخاله منك ، فأقبل عليه وقال له : يا ابن أخى ، إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ، ولا أردت أن أهتِفَ به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه ، فالله يغفر لكما ، ثم قام

وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال : كنت فى مجلس خُزَيْمَةَ فجرى حديث ما يُسْفَكَ من الدماء ، فقال : والله ما لنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته ، ولو لا عز السلطان وكراهة الذلة ، وأن أصير بعد الرياسة سُوقَةً ؛ وتابعا بعد ما كنت متبوعا ؛ ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى ، فاذا هو بالحاجب قد دخل عليه برُقْعَةٍ من أبى العتاهية فيها مكتوب :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه
وأنت على ما لا يحب مقيمُ

تَدُلُّ على التقوى وأنت مقصِّرٌ أيا من يُداوى الناسَ وهو سقيم
وإنَّ امرءاً لم يُلْهِهِ اليومُ عن غدٍ تَخَوُّفَ ما يأتى به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البِرَّ كنزَهُ وإن كانت الدنيا له لعَدِيم

فغضب خزيمة وقال : والله ما المعروف عند هذا المَعْتُوهِ المُلحِفِ من كنوز البِرِّ فيرغَبَ فيه حرٌّ ، فقيل له : وكيف ذاك؟ فقال : لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله

طعنهم فيه ببخله

وقد كان أبو العتاهية يأخذ مع هذا بالبخل ، فأضاف إلى ذلك سلاحا لخصومه يستعملونه أيضا فى تشويه زهده ، لأنه يبدو لأول وهلة أنه لا يجتمع مع الزهد ، كما لا يجتمع معه التكسب بالشعر ، وقد روى خصومه نوادر كثيرة فى بخله ، غالَوْا فيها مغالاةً كثيرة ، ليحاربوا بها دعوته فى الزهد ، ومن ذلك ما رواه ثُمامَةُ ابن أشرس ، قال : أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسَهُ تملَّكَهُ المالُ الذى هو مالكُهْ
ألاَ إنما مالى الذي أنا منفِقٌ وليس لِى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مالٍ فبادِرْ به الذى يحِقُّ وإلا استهلكته مهالِكه

فقلت : من أين قضيت بهذا؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما لك مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبِسْتَ فأبْلَيْتَ ، أو تصدَّقت فأمضيت » فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وأنه الحق ؟ قال نعم ، قلت : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بِدْرَةً في دارك ؟ ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ، ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك وفاقتك ، فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ، فقلت : وبم تزيد حال من افتقر عن حالك ؟ وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد . فترك جواب كلامى كله ، ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحما وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال لى هذا القول أضحكنى ، حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه ، وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام . ولا يخفى على الناظر فى هذه الرواية أنها متكلفة لأجل الوصول إلى هذه الغاية ، وهى نفى الاسلام عن أبى العتاهية ، مع أنها على فرض صحتها لا تؤدى إلى ذلك ، وإلا كان كل بخيل غير مسلم .

وحدث محمد بن عيسى الخُزَيْمِيُّ ، وكان جار أبى العتاهية ، قال : كان لأبى العتاهية جار يلتقط النوى ، ضعيف سيىء الحال ، مُتَجَمِّلٌ عليه ثياب ، فكان يمر بأبى العتاهية طرفى النهار ، فيقول أبو العتاهية : اللهم أغنه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيىء الحال ، عليه ثياب متجمل ، اللهم أغنه اصنع له بارك فيه . فبقى على هذا

إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة ، فقلت له يوماً : يا أبا إسحاق ، إنى أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقل ، فلم لا تتصدق عليه بشىء ؟ فقال : أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء لخيراً كثيراً

وقال علىُّ بن مَهْدِىٍّ ، حدثنى الحسين بن أبى السرى ، قال : قيل لأبى العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله ؟ قال : والله ما بخلت عما رزقنى الله قط ، قيل له : وكيف ذاك وفى بيتك من المال مالا يحصى ؟ قال : ليس ذلك رزقى ، ولو كان رزقى لأنفقته

وقال محمد بن عيسى : قلت لأبى العتاهية أتزكى مالك ؟ فقال : والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة مالى ، فقلت : سبحان الله ! إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال : لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم ، وهذا الجواب كالذى قبله فى الرواية السابقة فى أن مثلهما لا يصح أن يصدر من أبى العتاهية ، فان مثله لا يصح أن يجهل أن ما فى بيته رزقه ، ولا أن يجهل أن أولاده تجب عليه نفقتهم ، فلا يصح إخراج زكاته لهم ، ولكن قصد المغالاة فى بخله هو الذى يحمل هؤلاء الناس على إسناد مثل تلك الأقوال إليه

إبطال طعنهم وليس هناك غير ذينك الأمرين يمكن أن يطعن به فى زهد

أبي العتاهية، وإني أرى أنه لا محل للطعن عليه بهما، فأما التكسب بالشعر فلا شيء فيه ينافي الزهد، لأن الزهد في الاسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بأسباب الرزق، والسعي في الحصول على ما يمكن العيش به، ويطمئن به الرجل على مستقبله، وليس الزهد فيه إلا التورع عن الحرام وبيع الآخرة بالدنيا، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خذ من يومك لغدك ومن صحتك لمرضك ومن غناك لفقرك » والشعر فن من الفنون التي لا غنى للدولة عنها، ولهذا اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم له شعراء يدافعون عنه، ويؤيدون دعوة الاسلام، فيجب أن يأخذ الشعر حظه من الأموال التي تجبى من الدولة؛ ويجب على رجال الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء للشعراء لينهضوا بالشعر، وليعملوا على إجادته، وليس على الشعراء حرج إذا لم يصل إليهم ذلك الحق أن يتلطفوا في الوصول إليه بمدح الملوك والعظماء، وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مدحه بشعره من الشعراء، فأعطى كعب بن زهير بُرْدَتَهُ حين مدحه بقصيدته (بانت سعاد) فبقيت في أهله حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم، ثم بيعت للمنصور العباسي بأربعين ألفا، وقال عمر رضي الله عنه: نعم ما تعلمته العرب، الأبياتُ من الشعر يقدمها

الرجل أمام حاجته .

وإنما يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه فى الالحاح به ، وجعله كل غايته من الشعر ، فيمدح به من يعطيه ، ويهجو من يمنعه ، ويقلب به الحقائق فى سبيل المال ، فيجعل الحق باطلا ، ويجعل الباطل حقا .

شرفه فى تكسبه

ولم يكن هذا سبيل أبى العتاهية فى شعره حتى قبل زهده ؛ وقد ذكرنا فى ترجمته مايدل على شرف نفسه ، وأنه لم يكن يقبل المال إلا بعد الإلحاح به عليه ، كما حصل منه مع عُتْبَةَ ، وكما حصل منه مع المهدى حينما أعطاه خمسين ألف درهم ، ففرقها على من بالباب ، وقال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ، ثم كان يحاول فى آخر حياته أن يجعل جوائز الملوك له على هدايا يقدمها لهم ، وهو فى هذا يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم ، ويترفع عن ذلك التكسب الذى كان يأخذ به فى أول الأمر ، وإن كان على تلك الطريقة التى ليس فيها عيب عليه .

وقد ذكرنا أيضا من مواقفه مع أولئك الملوك وغيرهم مايدل على أنه لم يكن يهمه أمر عطاياهم ، وعلى أن تلك العطايا لم تكن بحيث تنسيه أن ينكر منهم مايستحق الانكار ، وأن يغضب لنفسه إذا رأى منهم تهاونا به ، وإنا نذكر من ذلك هنا ماحدث به

الحسين بن أبي السري قال: مر القاسم بن الرشيد في موكب عظيم، وكان من أتيه الناس، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاما له، فلم يزل قائما حتى جاز، فأجازه ولم يلتفت إليه، فقال أبو العتاهية:

يتيه ابن آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنه

فسمع بعض من كان في موكبه ذلك، فأخبر به القاسم، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مائة مقرعة، وقال له: يا ابن الفاعلة، أتعرض بي في مثل ذلك الموضع؟ وحبسه في داره، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات:

حتى متى ذو التيه في تيهه ... أصلحه الله وعافاه

يتيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا

من طلب العز ليبقى به ... فإن عز المرء تقواه

لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه، وكانت مائلة إليه، فرقت له وأخبرت الرشيد بأمره، وكلمته فيه، فأحضره وكساه ووصله، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى برأ بالعتاهية وأدناه واعتذر اليه

وحدث محمد بن عيسى قال: كنت جالسا مع أبي العتاهية، إذ مر بنا حميد الطوسي في موكبه، وبين يديه الفرسان والرجالة، وكان بقرب

أبى العتاهية سوادى على أتان، فضربوا وجه الأتان، ونحوه عن الطريق، وحميد واضع طَرْفَهُ على مَعْرَفَةِ فرسه، والناس ينظرون اليه يَعْجَبُون منه، وهو لا يلتفت تيها، فقال أبو العتاهية:

للموت أبنـاء بهم ماشئت من صَلَفٍ وَتِيهْ

وكأنني بالموت قـد دارت رحاه على بنيـه

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال:

ما أذَلَّ المُقِلَّ فى أعين النَّا س لإقلاَلِهِ وما أقماهُ

إنما تنظر العيون من النا س إلى من ترجوه أو تخشاه

وأما بخله فنحن نعتقد كما قدمنا أنه لم يصل إلى ذلك الحد الذى اختُلِقَت عليه فيه تلك النوادر، ومع هذا نعترف بأن أبا العتاهية كان ضنينا بما له على الناس، ويشفع عندنا له فى ذلك أنه كان رجلا شاعرا، يجمع ماله من أيدى الملوك والعظماء، ويتحمل مايتحمله فى ذلك من كان مثله فى عزة نفسه وعُلُوِّ قدره وتَطَلُّعِه إلى أن يكون فى قومه الشاعر المصلح، والحكيم المُرَبِّىَ للنفوس، فاذا ضن بماله بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائما فى غير حاجة مُلِحَّةٍ الى من يحاول أن يشترى بها شعره، فيسير فيه كما يحب هو أن يسير فيه، لا كما يحب أن يسير فيه غيره، وقد كان أبو العتاهية مهددا دائما من أجل ذلك بالحرمان، وعرضة للتضييق عليه بالسجن واستباحة المال، فهو يجمع من

الملل مايجده فى وقت غضب أولئك الملوك عليه و يضن به على الناس الذين لايجد منهم فى ذلك الوقت إلا شامتا أوناسيا للعهد

تبخيله كل الناس

وقد كان أبو العتاهية يسىء الظن بالناس ويؤثر العزلة عنهم، وكان له فيهم مذهب غريب، يقضى بتبخيلهم كلهم، فهو يقارضهم بخلا ببخل؛ و يشح عليهم بما يَشِحُّون به، قال مخارق: القيت أبا العتاهية على الجسر، فقلت له يا أبا إسحاق أتنشدنى قولك فى تبخيل الناس كلهم؟ فضحك وقال لى: هاهنا؟ قلت نعم، فأنشدنى:

إن كنت متَّخِذاً خليـلاَ	فتَنَقَّ وانْتَقِد الخليـلا
من لم يكن لك مُنْصِفاً	فى الود فابغ به بديـلا
ولَرُبَّمَا سئـــل البخـ	ـيل الشىء لايَسْوى فتيلا
فيقول لا أجـد السبيـ	ـل اليـه يكره أن يُنِيـلا
فَلِذَاكَ لا جعـل الالـ	ـه له الى خير سبيـلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ	ـت فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له: أفرطت ياأبا إسحاق، فقال: فديتك فأكذبنى بجواد، واحد، فأحببت موافقته، فالتفت يمينا وشمالا، ثم قلت ما أجـد، فَقَبَّلَ بين عينى وقال: فديتك يا بنى، لقـد وفقت حتى كدت تسرف

والحق أن أبا العتاهية كان عظيما فى عصره، ولم يُزْرِ به ذلك

التكسب بالشعر الذى لم يذل فيه لأحد، وكان الملوك يفرضونه له على أنفسهم، ولم يزر به ذلك البخل الذى كان يقارض الناس به؛ ومن أقوى ما يدل على علو منزلته فى ذلك العصر أنه كان له بنتان إحداهما « لله » والثانية « بالله » فخطب منه المنصور بن المهدى وأخو الرشيد « لله » فلم يزوجه وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهية، وكأنى به قد ملها فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ، ولكنى أختاره لها موسرا .

تحامقه

رميه بالحمق

كان خصوم أبى العتاهية مُضْطَرِبينَ فى أمره ، وقد حيرتهم تلك الدعوة التى قام بها يُسَفِّهُ آراءهم ، ويذكرهم عما غفلوا عنه من أمور الآخرة ، وخافوا على سلطانهم فى الشَّعْبِ أن تؤثر فيه هذه الدعوة ، فأخذوا يرمونه مرة بالزَّنْدَقَةِ ، ويرمونه مرة أخرى بِالْحُمْقِ ، وهما وصفان لا يجتمعان فى العادة ، وقد قال من رماه بالحمق إنه من أجله كُنِّيَ أبا العتاهية ، أخبر ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال : كنى بأبى العتاهية أنْ كان يحب الشُّهْرَةَ والمجون والتَّعَتُّه ، وأخبر محمد بن موسى بن حَمَّادٍ أن المهدى قال يوما لأبى العتاهية : أنت إنسان مُتَحَذْلِقٌ مُعَتَّهٌ ، فاستوت له من ذلك كُنْيَةٌ غلبت عليه دون اسمه وكنيته ، وسارت فى الناس . قال : ويقال للرجل الْمُتَحَذْلِقِ عَتَاهِيَةٌ ، كما يقال للرجل الطويل شَنَاحِيَةٌ ، ويقال أبو عتاهية باسقاط الألف واللام

ما يروى من حماقاته

وهم يروون له فى ذلك حماقات كثيرة ، منها ما حدث به عُمْرُوسٌ صاحب الطعام — وكان جار أبى العتاهية — قال : كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة ، سمعت بِشْراً الْمَرِّيسِيَّ يقول له : يا أبا

إسحاق ، لا تُصَلِّ خلف فلان جارك وإمام مسجدكم ، فانه مُشَبِّه ، قال : كَلّاَ ، إنه قرأ بنا البارحة فى الصلاة (قل هو الله أحد) وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد . وعندى أن أبا العتاهية يريد بهذا أنه مسلم ، وكل مسلم تصح الصلاة خلفه ، وإن انحرف مثل هذا الانحراف فى مذهبه ، وقد كان بِشْرٌ المريسىُّ من أئمة المعتزلة ، ويرى فى أهل السُّنَّةِ من السَّلف أنهم مشبهة ، مثل الامام أحمد بن حنبلٍ ، والامام مالك ، وغيرهما ، فذلك جواب دقيق من أبى العتاهية ، يدل على فَرْطِ ذكائه ، لا على حمقه وتعتُّهِهِ ، وقد كان أبو العتاهية كما سبق شيعيًّا معتدلا لا ينتقص أحداً ، فهو فى ذلك متفق مع مذهبه ، أما بشر المريسى فكان معتزليًّا متعصبا يُكَفِّرُ فى مثل ذلك وفى أقلَّ منه

ومنها ما ذكرناه عن مُخَارِقٍ فيما سبق (١) حينما دعاه فَغَنَّاه وشرب معه ، ثم أمر غلامه فكسر كل ما بين أيديهم من النَّبيذ وآلته والمَلَاهى ، قال مخارق : فظننت أنها بعض حماقاته ، فانصرفت وما لقيته زمانا ، ثم تَشَوَّقْتُه فأتيته فاستأذنت عليه ، فأذن لى

---

(١) أنظر ص ٥٧

فدخلت ، فاذا هو قد أخذ قَوْصَرَّتَيْنِ ونَقَبَ إحداهما ، وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقب أخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السَّرَاوِيل ، فلما رأيته نَسِيتُ كل ما كان عندى من الغم عليه ، والوحشة لِعِشْرَتِهِ ، وضحكت والله ضحكا ما ضحكت مثله قَطُّ ؛ فقال : من أيِّ شيء تضحك ؟ فقلت : أَسْخَنَ الله عينك ، هذا أيُّ شيء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزُّهَّاد والصحابة والمجانين ؟ انزع عنك هذا ياسخين العين ، فكأنه استحيا منى . ثم بلغنى أنه جلس حَجَّاماً ، فَجَهَدْتُ أن أراه بتلك الحال فلم أره ، ثم مرض فبلغنى أنه يشتهى أن أُغَنِّيَهُ ، فأتيته عائدا ، فخرج إلىَّ رسوله يقول : إن دخلت إلىَّ جدَّدت لى حزنا ، وتاقَتْ نفسى من سماعك إلى ماقد غلبتها عليه ، وأنا أستودعك الله ، وأعتذر اليك من ترك الالتقاء ، ثم كان آخر عهدى به

وقد ذكرنا رأينا هناك فى صدر تلك الرواية ؛ وأنا نستبعد حدوث مثله من شخص عزم على مثل ذلك العزم ، فأما مازاده هنا من جلوسه لِلْحِجَامَةِ ونحوه فسنذكر بَعْدُ رأينا فيه

ومنها ماذكره بِشْرُ بن المُعْتَمِر أنه قال يوماً لأبى العتاهية :

بلغني أنك لمَّا نسكْتَ جلست تَحْجمُ اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال نعم ، قال له : فماذا أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضعَ نفسي حَسَبَما رفعتني الدنيا ، ليسقط عنها الكِبْر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصّةً ، فقال له بشر : دَعْني من تذليل نفسك بالحجامة ، فانه ليس بحُجَّةٍ لك أن تُؤَدّبها وتصلحها بما لعلك تفسد أمر غيرك ، أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه الى إخراج الدّم ؟ قال لا ، قال : هل كنت تعرف مقدار مايحتاج كل واحد منهم الى أن يخرجه على قدر طبعه ، مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضَرَّ المحجوم ؟ قال لا ، قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقْفاء اليتامى والمساكين

ولا شيء عندي في أن يجهل أبو العتاهية مثل ذلك من أصول الحجامة ، لأنه كان رجلا شاعراً ، ولم يكن حَجّاما ، وإنما هي حرفة سهلة لجأ اليها لينجو بها من السيف الذي كان مُسلّطا على رقبته ، وحيلة من حِيَلِهِ التي كان يتخلص بها من أولئك الجَواسيس الذين كانوا يحيطون به من قِبَلِ العباسيين

روى أبو الفرج الأصْبهانيُّ قال : أخبرني محمد بن الصُّولي ،

قال حدثنا ابن ذَ كْوانَ ، قال حدثنا العباس بن رُسْتم ، قال .
كان حَمْدَوَيْهِ صاحب الزَّنادِقَةِ قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ،
ففزع من ذلك وقعد حَجَّاما

و إذن يكون خوفه من حمدويه هو الذى حمله على أن يحترف
هـذه الحرفة التى لم تكن من شأنه ، لا ماقاله لبشر بن المعتمر من
أنه أراد بها تذليل نفسه ، ويمكن أن يحمل على هذا كل ماروى
عن أبى العتاهية من الحماقات ، فلم تكن منه إلا تحامُقا يقصد به
مُداراةَ أهل الحُمْقِ والجهل من العامة وأشباههم ، والتخلص من
أهل الظلم الذين كانوا يحاربونه فى عقيدته ، ويحاولون أن
يُلْصِقوا به تهمة الزَّنْدَقة ، وقد يحمل مثل ذلك بعض ذوى العقول
على **التحامق** ، كما روى أنه جرى بين الامام الشافعى و بعض من
صحبه مَجَانَةٌ ، فقال رحمه الله فى ذلك .

تخلصه بها من تهمة الزندقة

وأنزلنى طولُ النَّوَى دار غُرْبَةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امرءا لا أشاكِلُهْ
أحامِقُهُ حتَّى يقالَ سجيةٌ
ولو كان ذا عقل لكنتُ أعاقِلُه

فلم يكن أبو العتاهية يقصد من كل ذلك إلا اتقاء ما كان
يُدَبَّرُ له من ضروب الكيد ، لأن ظهوره بهذا المظهر يُهَوِّنُ من

أمره عند من يقصده بالشر ، ويجعله امرءاً لا يخاف منه شيء ، وهم لم يكونوا يقصدون منه إلا أن يترك تلك الدعاية الشعرية السابقة ، فاذا تركها ولجأ إلى تلك الحجامة ونحوها نجا منهم ، وتخلص من شرهم

وقد كان أبو العتاهية يعتمد فى تلك الحياة المضطربة على ضروب من الحيلة كان يُجيدُ تمثيلها ، وقد أمكنه بها أن يعيش مع أولئك الملوك الذين كانوا إذا غضبوا لا يَرْدَعهم شرع ، ولا يقف بهم الغضب عند حد ، ولولا ذلك لطاحت رقبته فيمن طاحت رقابهم ، ممن لم تكن الحيلة تُسَاعِفُهم فى وقت الشدة ، كما كانت تُسَاعِفُ أبا العتاهية ، وقد كان أبو العتاهية صاحب حِيَلٍ ونوادر لطيفة ، وكان يتوصل بها إلى ما يعجز عنه غيره ، وينال بها القبول عند أصحاب الحَلِّ والعَقْدِ فى عصره ، من رجاله ونسائه ؛ ومن ذلك ما ذكرناه فى ترجمته من نوادره مع صاحبته عتبة (١)

أما تكنيته بأبى العتاهيـة فيجوز أن يكون من أجل تلك الأمور التى كان يتحامق بها ، كما يرى ذلك من سبق من خصومه ، ويجوز أن يكون من أجل ابنه عَتَاهِيَة ، وقد ذكر عنه صاحب

---

(١) أنظر ص ٣٩

الأغانى بعضا من أخبار أبيه[(١)] وهذا عندى هو الرأى الراجح فى تلك الكنية ، وقيل إن المهدى قال له يوما : أنت إنسان متحذلق معتّه . فاستوت له من ذلك كنية أبى العتاهية ؛ وكان قبلها يكنى أبا إسحاق ، وروى ميمون بن هارون عن بعض مشايخه أن هذه الكنية كانت من أجل أنه كان يحب الشهرة والمجون والتعتّه ؛ وقد يقال للرجل المتحذلق عتاهية ، كما يقال للرجل الطويل شنَاجية

(١) وقد مر على فى مطالعاتى من سمى به غيره ، ومن ذلك حسان بن عتاهية صاحب شرطة مصر فى عهد مروان بن محمد آخر ملوك بنى مروان

منزلته فى الشعر

زعامته لطبقته

قد وازنّا فيما سبق بين أبى العتاهية وَبشّارٍ وأبى نُوَاسٍ ، وخرجنا من هذه الموازنة بتقديم أبى العتاهية عليهما ، وإذا كان له ذلك التقديم عليهما ، فله التقديم على طبقته من الشعراء المُحْدَثين ، ويكفى أبا العتاهية فى ذلك توجيهه الشعر إلى تلك الوجهة الصالحة ؛ وما لقيه فى ذلك من تألب ملوك عصره عليه ، وما عذّبوه به من سجن وغيره ، وما ناله فيه من الطعن فى دينه وشرفه وعقله ، فلم يَحُلْ كل هذا بينه وبين تأدية رسالته فى الشعر ، وذهابه فيه إلى جد الحياة دون هزْلِهَا ، وإلى تربية الشّعْبِ وهدايته ، وإنارة السبيل أمامه ، وتقويم عِوَجِهِ وزَيْغِهِ . بينما كان غيره يجعله لَهْوَ الشعب ، وداعية فساده وضلاله

تقديم أبى نواس له

وهذا الذى نقدم به أبا العتاهية من أجله قد اعترف به أبو نُوَاسٍ من قبلنا ، وفَضَّلَ به أبا العتاهية على نفسه ، حدّث هارون بن سَعْدَانَ قال : كنت مع أبى نُوَاسٍ فى بعض طُرُقِ بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرِّجْلِ ، بين بنى هاشم وفتياتهم ، والقُوّادِ وأبنائهم ، ووجوه أهل بغداد ، فَكُلٌّ يسلم عليه فلا يقوم

إلى أحد منهم ، ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار مريسيّ ، وعليه ثوبان دَبيقِيَّان : قميص ورداء ، قد تقنَّعَ وردَّه على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه ، فمكثا بذلك مَلِيًّا ، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحا من الاعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبو نواس فجلس فى مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظِّمه هذا الاعظام ؟ وتُجِلُّه هذا الاجلال ، فقال : هذا إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية ، فقال له السائل : لم أجلَلْتَهُ هذا الاجلال ؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال : ويْحَكَ لا تفعل ، فوالله ما رأيته قَطُّ إلا توهمت أنه سماوِىٌّ ، وأنا ارضِىٌّ

كيف كان شاعر الشعب

ويكفى أبا العتاهية فى ذلك أيضا أنه كان فى عصره الشاعر الشَّعْبِىَّ ، إذ أمكنه أن يَدْنُوَ بالشعر العربى إلى أفهام العامّة ، فوردوا مناهله العَذْبَةَ ، بعد أن حرموا منها زمنا طويلا ، وأُغْلِقَ دونهم بابه بنزول لغتهم عن لغته ، وانصراف الشعراء عنهم ، كأنهم من العَجْمَاوَاتِ التى لاحظ لها فى الحكمة والأدب ، وقد وصل إلى هذا

وهو محتفظ للشعر بما يَتَطَلَّبُهُ منه الخاصة أيضا ، فأرضى بشعره الفريقين ، ولم ينزل به عن مرتبة فحول الشعراء ، وكان مُعْجبا كثيراً بما وصل اليه من ذلك ، راضيا كل الرضا بتلك السهولة التى يَصُوغُ بها شعره ، قال سَلْمُ الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائرا ، فقلت : مقبول منك ، ومشكور أنت عليه ، فأَقِمْ ، فقال : إن هذا مما يشتدُّ علىَّ ، قلت : ولِمَ يشتدُّ عليك ما يسهل على أهل الأدب ؟ فقال : لمعرفتى بضيق صدرك ، فقلت له وأنا أضحك وأعْجَبُ من مُكابرته « رَمَتْنِي بدائها وانْسَلّتْ » فقال : دَعْنِي من هذا واسمع منى أبياتا ، فقلت هات ، فأنشدنى.

نَغَّصَ الموتُ كُلَّ لَذَّةِ عيشٍ
يالَقَومى للموتِ ما أوْحَاهُ

عجباً إنه إذا مات مَيْتٌ
صدَّ عنه حبيبه وجفاه

حيثما وَجَّهَ امرؤٌ ليفوتَ الْـ
ـموتَ فالموتُ واقفُ بِحِذَاه

إنما الشَّيبُ لابن آدمَ ناعٍ
قام فى عارضَيْهِ ثم نعاه

من تمنَّى الْمُنَى فأغرق فيها

مات من قبل ان ينال مناه

ما أذلَّ المقِلَّ فى أعين النا

سِ لإقلاله وما أقماه

إنما تنظر العيونُ من النا

سِ إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جوَّدْتهَا لو لم تكن سُوقِيَّةً ؛ فقال: والله ما يُرَغِّبنِي فيها إلا الذى زَهَّدَكَ فيها

وهذا العيب الذى ذكره سَلْمٌ الخاسر هو ما يسمونه فى علوم البلاغة ابتذال الكلام ، وقد ذكرت فى كتابى (البلاغة العالية) أن ذلك ليس بعيب فيه ، وها هو ذا أبو العتاهية لا يعبأ به ، وكيف يعبأ به وقد قام الشعر المُحْدَثُ فى عصره على اختيار هذه السهولة، وترك ما كان يُعْنَى به فى الألفاظ من إيثار الفخامة و الضَّخَامة

إيثاره سهولة اللفظ

وقد ذكر ابن رَشِيقٍ أبا العتاهيه فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويُعْنَى بها مع الاجادة وملاحة القَصْد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نُوَاسٍ والحسين بن الضَّحَّاك الخليع ، فقال أبو نواس: لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتى إنَّ الهوى قاتلى فسيِّروا الأكفانَ من عاجلِ

ولا تلوموا فى اتباعِ الهوى　　فإننى فى شُغُلٍ شاغلِ

عينى على عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ　　بدمعها المُنْسَكِبِ السائلِ

يا من رأى قبلى قتيلاً بكى　　من شدّة الوَجْدِ على القاتلِ

بسطتُ كَفِّى نحوكم سائلاً　　ماذا تردُّون على السَّائلِ

إن لم تُنيلُوه فقولوا له　　قولاً جميلاً بدَلَ النَّائلِ

أو كنتمُ العامَ على عُسْرةٍ　　منه فَمنُّوهُ إلى قابل

فسلما له وامتنعا من الانشاد بعده ، وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الاشارات ، فلا ننشد شيئا . قال ابن رشيق : وذلك فى بابه من الغَزَلِ جيّدٌ أيضا ، لا يفْضُلُه غيره

وكان أبو العتاهية يجرى فى ذلك على سَجِيَّةٍ سهلة مُوَاتِيَةٍ ، ويأتى فيه بشعر لا تَكَلُّفَ فيه ولا تَصَنُّعَ ، وبلغ من سهولة الشعر عليه أنه كان يقول : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت ، وقيل له : كيف تقول الشعر ؟ قال : ماأردته قطْ إلا مَثَلَ لى ، فأقول ما أريد ، وأترك مالا أريد ، وحدَّث عبد الله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ، فجلس إلىَّ ، فقلت : يا أبا إسحاق ؛ أمَا يصعب عليك شىء من الألفاظ ، فتحتاج فيه

إلى استعمال الغريب ؛ كما يحتاج اليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مُستكْرَهَة ، قال لا ، فقلت له : إني لأحسبُ ذلك من كثرة ركوبك القْوَافِيَ السهلة ؛ قال : فاعرِضْ عليَّ ما شئت من القوافي الصعبة ، فقلت : قل أبياتا على مِثْلِ البلاغ ، فقال من ساعته :

أيُّ عيشٍ يكون أبلغَ من عيْ
شٍ كفافٍ قُوتٍ بقدر البلاغ
صاحبُ البغي ليس يسلم منه
وعلى نفسه بَغَى كُلُّ باغِ
رُبَّ ذي نعمة تَعَرَّض منها
حائلٌ بينه وبين المَسَاغ
أبلغَ الدَّهرُ في مواعظه بَلْ
زاد فيهنَّ لي على الابلاغ
غَبَنَتْنِي الأيامُ عقلي ومالي
وشبابي وصحتي وفراغي

قدرته على تفخيمه

على أن أبا العتاهية كان مع هذا إذ أراد تفخيم لفظه ومعناه لم يقصُرْ به ذلك عن غيره ، ومضى فيه كأنه من أولئك الشعراء الجاهليين أو المُخَضْرَمينَ أو الاسلاميين ، قال مسعود بن بِشر

المازنىّ : لقيت ابن مَناذِرَ بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الاسلام ؟
فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جَدَّ ؟ قلت من ؟
قال : مِثْلُ جريرٍ حين يقول فى النسيب :

إن الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادرُوا
وَشَلاً بعينك ما يزال مَعِينـا
غيَّضْن من عبراتهن وقُلْن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينـا

ثم قال حين جدَّ :

إنَّ الذى حرم المكارم تغلبـاً
جعـل النبُوَّةَ والخلافة فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهـل لكم
يا آل تغلبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمِّى فى دِمَشْقَ خليفةٌ
لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطِينـا

ومن المُحْدَثين هذا الخبيث الذى يتنـاول الشعر من كُمِّهِ ،
فقلت من ؟ قال أبو العتاهية ، قلت فماذا ؟ قال قوله :

اللهُ بينى وبين مولاى أبْدَتْ لىَ الصدَّ والمَلالاتِ
لاتغفر الذنبَ إن أسأتُ ولا تقبـل عذرى ولا مُوَاتاتى

منحتها مُهْجَتى وخالصى فكان هجرانُها مكافاتى
أقْلَقَنى حبُّها وصيَّرنى أُحْدُوثَةً فى جميع جاراتى

ثم قال حين جدَّ :

ومَهْمَهٍ قد قطعت طامسَهُ قَفْرٍ على الهَوْلِ والمحاماةِ
بحُرَّةٍ جَسْرَةٍ عُذافِرَةٍ خَوْصاءَ عَيْرانَةٍ عَلَنْداةْ
تُبادرُ الشمس كلما طلعتْ بالسير تبغى بذاك مَرْضاتى
ياناقُ خُبّى بنا ولا تَعِدِى نفسك مما تَرَيْنَ راحات
حتَّى تُناخى بنا إلى مَلِكٍ تَوَّجَهُ اللهُ بالمهابات
عليه تاجانِ فوق مَفْرقِهِ تاجُ جلالٍ وتاجُ إخْبات
يقول للريح كلما عصفتْ هل لَكِ ياريحُ فى مُباراتى
من مِثْلُ من عَمُّهُ الرسول ومَنْ أخوالُهُ أكرم الخُؤُولات .

ويوجد كثير غير ابن مَناذِرَ يشاركه هذا الرأى فى أبى العتاهية ، ومن ذلك الكثير بَشَّار بن بُرْدٍ ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مُخَنَّثُ أهل بغداد ، يَعْنى أبا العتاهية

موازنة بينه وبين أبى نواس

ومنهم الفَرَّاء وجعفر بن يحيى وأبو نُواسٍ ، وقد ذكرنا رأى أبى نواس فيه أول هذا الفصل ، وتفضيله له على نفسه ، وقال الحِرْمازِىُّ فى الموازنة بينهما : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البَدِيهةِ ،

وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فاذا تعاطيا جميعا السرعة فَضَلَه أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهّلاَ فضله أبو نواس ، ويرجع هذا عندى إلى أن أبا العتاهية كان من الشعراء المطبوعين ، أما أبو نواس فقد درس من علوم اللغة وغيرها مالم يُتَحْ مثله لأبى العتاهيـة ، فـكان أبو العتاهيـة فى السرعة يفضُل أبا نواس بطبعه ، وكان أبو نواس فى التمهُّل يفضل أبا العتاهية بدراسته وسعة علمه

رأيه فى شعره

أما رأى أبى العتاهية نفسه فى شعره فقد اضطربت الرواية فيه ، وقد سبق له مع سلم الخاسر ما يفيد أنه كان معتزّا بشعره ، وسبق أيضا أنه كان يبلغ من اعتداده بنفسه أن يقول إنه أكبر من العَرُوض ، ولكن أبا الفرج الأصبهانىّ روى عن ابن أبى الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه ، لأنى أرجو ألا آثم فيه، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن استزيدمنه،فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هَرِمَة ، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على

جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رُواة الشعر ، ولا طُلاَّب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به ، الزُّهَّادَ وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرِّيَاء والعامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لِدُوا للموتِ وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تبَابِ

أيا موت لم أر منك بُدًّا أتيت وما تَحيف وما تُحابى

كأنك قد هجمتَ على مَشِيبى كما هجم المشيب على شبابى

قال : فصرت إلى أبى نُوَاسٍ فأعلمته ما دار بيننا ، فقال : والله ما أحْسَبُ فى شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس ، فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طولُ التَّعَاشرِ بين الناس مملول
ما لابن آدم إن فَتَّشْتَ معقول
يا راعىَ الشَّاء لا تُغْفِلْ رعايتها
فأنت عن كلِّ ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل ما زلت أعْمُرُهُ
على يقينٍ بأنى عنه منقول

وليس مِنْ موضع يأتيه ذو نَفَسٍ
إلاّ وللموتِ سيفٌ فيه مسلول
لم يُشْغَلْ الموت عنا مذ أعد لنا
وكُلُّنَا عنه باللذّات مشغول
وَمن يَمُتْ فَهْوَ مقطوعٌ ومُجْتَنَبٌ
والَحْيُّ ما عاش مَغْشِيٌّ وموصول
كل ما بَدَا لَكَ فالآ كالُ فانيةٌ
وكلٌّ ذى أُكُلٍ لا بد مأكول

قال : ثم أنشدنى عدة قصائدة ما هى بدون هذه ، فصرت إلى أبى نواس فأخبرته ، فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءا .

تحقيق روايته

ورأيي فى هذه الرواية أنها مضطربة لا يصح الأخذ بها ، وأن آخرها ينقض أولها ، فهل يصح أن يشهد أبو العتاهية بأن شعره ردىء لا يُعْتَدُّ به ، ثم يعود فيعتد بتلك القصائد التى أنشدها لابن أبى الأبيض ، ويغضب حينما يبلغه عن أبى نواس قوله (ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر) وهل يصح أن يخفى على أبي نواس شعر أبى العتاهية حتى ينكر أن فيه بيتا آخر فى جودة ما أنشده ، ثم يعود فيعترف بجودة ما أنشده من تلك

القصائد ، لا بجودة بيت واحد ، وهل يتفق هذا مع ما ذكرناه في أول هـذا الفصل من اعتراف أبي نواس بفضل أبي العتاهية عليه ؟ اللهم لا

والحق أن أبا العتاهية كان مُعْتَزًّا بشعره مُعْتَدًّا به ، ولم يكن يرى أنه شعر ردىء كما يزعم ابن أبي الأبيض ، فان من يرى في شعره هذا الرأى لا يمكن أن يقارع به خصومه عند الملوك والعظماء كما فعل أبو العتاهية ، وقد ذكرنا في ترجمته كيف كان يقارع به أولئك الخصوم ، وكيف كان ينال به من صلات الملوك ما كان يثير عليه حسدهم ، ولو كان يراه شعرا رديئا لقعد به في بيته، ولم ينهض إلى مُقَارَعَةِ أحد به .

فنونه الشعرية

تصرفه فيها قبل زهده

كان أبو العتاهية قبل أن يقصر نفسه على الزهد يقول الشعر فى كل فنونه ، من غَزَل ومديح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف وغير ذلك مما كان يتناوله الشعراء فى عصره ، فلما قصر نفسه على ذلك صرف شعره كله فى الزهد والوعظ والحكمة والمثل ، فأعطى الشعر العربى من ذلك ثروة عظيمة كان فى أشد الحاجة إليها .

الغزل :

غزله وخصائصه

يذهب أبو العتاهية فى غزله مذهب الشعراء العشاق ، مثل جميل والمجنون وغيرهما ، وإن كنا قد ذكرنا فى ترجمته أنه لم يكن صادق الحب مثلهم ، ولكن سجيته التى كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد ، لم تكن لترضى أن تذهب فى الغزل مذهب الشعراء الفساق ، مثل امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة وأبى نُوَاسٍ وغيرهم ، وقدجاء غزله من أجل ذلك عفيفا بعيدا عن الفحش والفجور ، ليس فيه إلا شكوى الصبابة ، وألم الصَّدِّ ، وعذاب الفراق ، ونحو ذلك من وِجْدَانات أهل العشق ، وقد

ذكرنا فى ترجمته كيف كان المهدى والرشيد يقهرانه على القول فى الغزل إذا تركه ، وهذا بينما كانا يفعلان مع بشار وأبى نواس وغيرهما ما يفعلان من أجل فجورهم وفحشهم فى الغزل ، ومن ذلك غزل أبى نواس فى الغلمان ، فقد أفحش فيه جدا ، واستباح فيه ذكر ما لا يبيحه شرع ولا ذوق ولا مروءة ، ولم يفعل ذلك أبو نواس وحده ، بل كان شعراء ذلك العصر فيه سواء ، أما أبو العتاهية فصان نفسه عنه ، ولم يدنس شعره بذلك الغزل الممقوت .

مختارات منه

وقد قصر أبو العتاهية غزله على عتبة التى تعلق بها حينما انتقل من الكوفة إلى بغداد ، وظهر أمامها بمظهر الحب الصادق ، فكان كل غزله فيها ، كما كان كل غزل جميل فى بُثَيْنَةَ ، وكل غزل المجنون فى ليلى ، وكل غزل كُثَيِّرٍ فى عَزَّةَ ، وكان شأنه فى هذا شأن كل الشعراء العشاق سواءً بسواء .

ولا يقصر غزل أبى العتاهية فى جودته عن غزل أولئك الشعراء ، وقد شهد له بذلك مسلم بن الوليد ، وكان من الشعراء المجودين الآخذين فى الشعر بتقاليد الأقدمين ، ويخالف أبا العتاهية وأضرابه ممن خرج فى شعره على تلك التقاليد ، فذكر أبو الفرج الأصبهانى أن مسلما قال : كنت مستخفا بشعر أبى العتاهية ،

فلقيني يوماً فسألني أن أصير إليـه ، فجاءني بلون واحد فأكلنا ، وأحضر لي تمرا فأكلناه ، وجلسنا نتحدث ، وأنشدته أشعارا لي في الغزل ، وسألته أن ينشدني ، فأنشدني قوله :

با لله يا قرة العينين زُورِينِي
قبل الممات وإلا فاستزيريني

إني لأعْجَبُ من حُبٍّ يُقَرِّبُنِي
ممن يباعدني منـه ويقْصِينِي

أمَّا الكثير فما أرجوه منكِ ولو
أطْمَعْتِنِي في قليل كان يكفيني

ثم أنشدني أيضا :

أخِلاَّيَ بي شجو وليس بكم شَجْوُ
وكل امرىء عن شجو صاحبه خِلْوُ

وما مِنْ محب نال ممن يحبه
هوًى صادقا إلا سيدخله زَهْو

بُليتُ وكان المزح بدء بليتي
فأحببتُ حقًّا والبلاء له بَدْو

وعلقتُ من يزهو عليَّ تجبرا
وإنيَ في كل الخصال له كُفْو

رأيت الهوى جمر الغضَا غير أنه
على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدنى :

خَلِيلَىَّ مالى لا تزال مَضَرَّتى
تكون مع الأقدار حتما من الحَتْمِ
يصاب فؤادى حين أَرْمى ورَمْيَتِي
تعود إلى نحرى ويسلم من أرمى
صبرت ولا والله ما بى جلادةٌ
على الصبر لكنى صبرت على رغمى
ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى
ألا مُسْعِدٌ حتى أنوح على جسمى
تُعَدُّ عظامى واحـــداً بعد واحد
بِمَحْنٍ من العُذَّال عظما على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتنى
فهذا مقامُ المستجير من الظلم

قال مسلم فقلت له : لا والله يا أبا إسحاق ، ما يبالى من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر ما فاته من الدنيا ، فقال : يا ابن

أخى ، لا تقولنَّ مثل هـــذا ، فان الشعر أيضا من بعض مصايد الدنيا .

وإنى أرى فى قوله :

بُلِيتُ وكان المزح بدء بليتى

فأحببتُ حقًّا والبلاء له بَدْوُ

ما يؤيد رأيى سابقا فى أن حبه من أوله إلى آخره لم يكن يعدو حدَّ المزح[1] ولهذا احتاج إلى أن يقول (فأحببت حقا) لينفى عن نفسه الريبة التي كانت تقوم بنفس عتبة فى حبه .

المدح :

مدحه وخصائصه

وكان مدح أبى العتاهية كغزله لا يقوله عن داع صحيح ، أو ينطق فيه عن يقين وعقيدة ، وإنما كان كان مديحا تجاريا يراد منه الوصول إلى المال ، وهذا لأنه كان يمدح به العباسيين ، وقد ذكرنا أن هواه لم يكن معهم[2] وإنما كان مع أبناء على رضى الله عنه ، وإن لم يكن يرى الخروج عليهم ، وكانت الشيعة تبيح أخذ المال من المُتَمَلِّك ، لأنه فى نظرهم حق لهم ، فجرى أبو العتاهية فى ذلك على هذا المذهب ، ومدح العباسيين بقدر ما يصل به إلى ذلك الغرض ، ولم يدخل به فى الخصومة السياسية التى كانت قائمة فى

(١) أنظر ص ٣٣ (٢) أنظر ص ٧٨

عصره بين العباسيين والعَلَويين ، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة ، ودفعهم مال بنى العباس إلى أن يجعلوا حقهم فى الملك بالارث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيه العلويون ، ولا غيرهم من المسلمين ، لأن جدهم العباس كان عم النبى صلى الله عليه وسلم ، أما على فكان ابن عمه أبى طالب ، وكان أبناؤه أولاد فاطمة رضى الله عنها ، وابن العم وأولاد البنات لا يرثون مع العم شيئا ، وفى هذا المعنى يقول بعض شعراء ذلك العصر :

أنى يكون وليس ذاك بكائن

لبنى البنات وِرَاثةُ الأعمامِ

وقد فرح العباسيون بهذه الفكرة الخاطئة غاية الفرح ، وعدوها نصرا كبيرا لهم على العلويين ، فأغدقوا العطاء على الشعراء الذين تناولوها فى شعرهم ، ولا سيما ذلك الشاعر الذى ابتكرها لهم ، وغاية ما قاله أبو العتاهية فى مدحهم ذلك البيت الذى ذكرناه فى ترجمته ، وهو من أربعة أبيات قالها فى مدح هارون الرشيد :

وحقيق أن يُدَان له من أبوه للنبىِّ أب (١)

---

(١) أنظر ص ٦٩

وليس فى هذا ما يمنع العلويين من حقهم فى الملك ، ولا ما يتنافى مع عقيدته فى التَّشَيُّعِ لهم ، لأنه لم يكن يرى الخروج على السُّلْطَانِ القائم

وقد ساعدت أبا العتاهية سَجِيَّتُه المُوَاتِيةُ له فى الشعر ، فبلغ فى مدح العباسيين مع مخالفته لهم فى عقيدته ، ما لم يبلغه من كان موافقا لهم فيها ، وكان يمدحهم عن إخلاص وعقيدة ، مثل مَرْوَانَ بن أبى حَفْصَةَ وغيره ، بل كان يفضلهم فى العطاء ، وينال منه أكثر مما كانوا ينالون ، قال العُتْبِىُّ : رُؤِىَ مَرْوَانُ بن أبى حفصة واقفا بباب الجسر كئيباً آسفاً ، يَنْكُتُ بسوطه فى مَعْرَفَةِ دابته ، فقيل له : يا أبا السِّمْط ، ما الذى نراه بك ؟ قال : أخبركم بالعَجَب ، مدحت أمير المؤمنين ، فوصفت له ناقتى من خِطامها إلى خُفَّيْها ، ووصفت الفَيَافِى من اليَمَامَةِ (١) إلى بابه أرضا أرضا ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت منه على غَنَاءِ الدهر ، جاء ابن بَيَّاعة النَّخَّاخِيرِ - يعنى أبا العتاهية - فأنشده بيتين ، فضعضع بهما شعرى ، وسَوَّاهُ فى الجائزة بى ، فقيل وما البيتان ؟ فأنشد :

إنَّ المطايا تشتكيك لأنَّها ... تَطْوِى اليك سَبَاسِباً ورمالاَ

---

(١) وكان مروان من أهلها

فاذا رَحَلْنَ بنا رحلن مُخِفَّةً وإذا رَجَعْنَ بنا رجعن ثِقالا

وكان أبو العتاهية لا يُعْنَى فى المدح كما ذكرنافى ترجمته بمثل ما عُنِيَ به مروان ابن أبى حفصة من النسيب ونحوه ، بل كان يقتصر فيه على أقَلِّ ما يمكن ، ثم يمضى فى المدح المقصود من الشعر ، وكان هذا يُعْجِبُ من يمدحه ، ويفضله به على غيره من الشعراء

مختارات منه

وكان من علماء الأدب من يرمى أبا العتاهية بضعف الشعر فى المدح ونحوه خلا الزهد ، وكان ابن الأعرابى يتعصب له فى كل شعره ، ويفضله على سائر الشعراء ، فتنقصه رجل أمامه ، ورمى شعره بالضعف ، فقال له : الضعيف والله عقلك لا شعر أبى العتاهية ، ألأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر ؟ فوالله مارأيت شاعرا قَطُّ أطْبَعَ ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السِّحْر ، ثم أنشده قصيدته فى الزهد :

قَطَّعْتُ منك حبائل الآمالِ

وَحَطَطْتُ عن ظهر المَطِيِّ رحالِي (١)

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال الرجل : يا أبا عبد الله - جعلنى الله فداءك - إنى لم

(١) سنذكر هذه القصيدة فيما نختاره من شعره فى الزهد والحكمة

أرْدُدْ عليك ما قلت ، ولكن الزهد مذهب أبى العتاهية ، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد ، فقال : أفليس الذى يقول فى المديح :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى
إذا ما الصَّدِى بالرِّيقِ غُصَّتْ حناجِرُهْ

وأوْسَطُ بيتٍ فى قريش لَبيْتُهُ
وأوَّلُ عِزٍّ فى قريش وآخره

وزحفٌ له تَحْكِى البُرُوقَ سيوفُهُ
وتحكى الرعُودَ القاصفاتِ حوافره

إذا حَمِيتْ شمس النهار تضاحكت
إلى الشمس فيه بِيضُهُ ومَغَافِره

إذا نُكِبَ الاسلامُ يوماً بنكبة
فهارون من بين البَرِيَّةِ ثائره

ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ
كذا لم يَفُتْ هارون ضِدٌّ يُنافِره

قال : فتخلص الرجل من شر ابن الأعرابى بأن قال له : القول ما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

وكان مدح أبى العتاهية للعباسيين مدح الشاعر الذى يعرف لنفسه منزلتها ، ولا يحمله حب المال على أن يتهاون فى كرامتها ، بل كان يغضب لنفسه إذا رأى منهم شيئا من الاهانة ، أو أظهروا له شيئا من الاعراض ، ولا يهمه مالهم ولا غيره مما عندهم ، وله فى ذلك حوادث كثيرة ، منها ما ذكره أبو الفرج الأصْبَهَانِيُّ قال: كان أبو العتاهية منقطعا إلى صالح المسكين ، وهو ابن أبى جعفر المنصور ، فأصاب فى ناحيته مائة ألف درهم ، وكان له وَدُوداً وصديقا ، فجاءه يوما وكان له فى مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره ، فنظر اليه قد قَصَّرَ به عنها ، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك ، ورأى نظره اليه ثقيلا ، فنهض فقال :

أرانى صالحٌ بغْضَا ... فأظهرت له بغضـا

ولا والله لا ينقُ ... ض إلا زدته نقضا

وإلا زدتُهُ مقتا ... وإلا زدته رفضا

ألا يا مفسد الوُدّ ... وقد كان له محضا

تغضبتَ من الريح ... فما أطلب أن ترضى

لئن كان لك المال الْ ... مصفّى إنلى عرْضا

فنمِيَ الكلام إلى صالح ، فنادى بعداوته ، فقال فيه :

مددت لمعرضٍ حبلا طويلاً ... كأطول ما يكون من الحبالِ
حبال بالصَّريمة ليس تفنى ... موصَّلةٌ على عدد الرمال
فلا تنظر إليَّ ولا تردنى ... ولا تقرب حبالُكَ من حبالى
فليت الرَّدْم من يأجوج بينى ... وبينكَ مثبتا أخرى الليالى
فكَرْشٌ إن أردت لنا كلاما ... ونقطع قحف رأسك بالقتال

وذكر أبو الفرج أيضا أن أبا العتاهية قدم يوما منزل يحيى بن خاقان ، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف ، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ، ودخل إلى منزله ، ولم يأذن له ، فأخذ قرطاسا وكتب إليه :

أراك تُرَاعُ حين ترى خيالى ... فما هذا يَرُوعك من خيالى
لعلك خائف منى سؤالى ... ألا فلك الأمان من السؤال
كفيتك إن حالك لم تَمِلْ بى ... لأطلب مثلها بدلا بحالى
وإن اليسر مثل العسر عندى ... بأيهما مُنيتُ فلا أبالى

الرثاء :

رثاؤه وخصائصه

انفرد أبو العتاهية فى الرثاء من بين شعراء عصره بأنه كان يذهب فيه مذهبه فى الزهد والحكمة ، لقرب مقام الرثاء من مقامهما ، وكان يستعين فيه أحيانا بما نقل من الحكمة اليونانية وغيرها إلى العربية ،

مختارات منه ومن ذلك رثاؤه فى على بن ثابت ، وكان صديقا له ، وبينهما مُجَاوَبات كثيرة فى الزهد والحكمة ، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه ، فلم يزل ملتزمه حتى فاض ، فلما شُدَّ لحياه بكى طويلا ، ثم أنشد يقول :

يا شريكى فى الخير قَرَّبَكَ الله

فنعم الشريك فى الخير كنتا

قد لَعَمْرِى حكيت لى غُصَصَ المو

ت فحركتنى لهـا وسكنتا

ولمـا دفن وقف على قبره يبكى طويلا أحَرَّ بكاء ، ويردد هذه الأبيات :

ألاَ مَنْ لى بأُنْسِكَ يا أُخَيَّا

ومن لى أن أبُثَّك ما لديَّا

طوتك خطوب دهرك بعد نشر

كذاك خطوبه نشراً وطيَّا

فلو نشرت قُوَاكَ لى المنـايا

شـكوت إليك ما صنعت إليا

بكيتك يا علىُّ بدمع عينى

فما أغنى البكاء عليك شيَّا

وكانت في حياتك لى عظات

فأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

وهذه المعانى كما قال أبو الفرج الأصبهانى مأخوذة كلها من كلام الفلاسفة اليونانيين لما حضروا الاسكندر ، وقد أخرج ليدفن ، فقال بعضهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقال آخر : سكنت حركة الملك فى لذاته ، وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعا لفقده . وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فى هذه الأشعار .

ومن رثاء أبى العتاهية ما قاله فى بنت ماتت للمهدى ، فحزن عليها حزنا شديدا ، حتى امتنع عن الطعام والشراب ، فقال أبو العتاهية أبياتا يعزيه بها ، فوافاه بها وقد سلا وضحك وأكل ، وهو يقول: لا بد من الصبر على مالا بد منه ، ولئن سلونا عما فقدنا ، ليسلوَنّ عنا من يفقدنا ، ومايأتى الليل والنهار على شىء إلا أبلياه ، فاستأذنه أبو العتاهية فى إنشاد ما قال ، فأذن له ، فقال :

ما للجديد يدين لا يَبْلَى اختلافهما

وكل غَضٍّ جديد فيهما بالِ

يامن سلا عن حبيب بعد مَيْتَتِهِ

كم بعد موتك أيضا عنك من سال

كأنَّ كُلَّ نعيم أنت ذائقُهُ
من لَذَّةِ العيش يحكى لمعَةَ الآل
لا تلعبنَّ بك الدنيا وأنت ترى
ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثال
ما حيلةُ الموتِ إلا كُلُّ صالحةٍ
أوْلاَ فما حيلةٌ فيه لمحتـــال

الهجاء :

هجاؤه وخصائصه

كان أبو العتاهية وهو بالـكوفة يعاشر خلعاءها ومُجّانها لا يتورع عن الهجاء ، ولا تعاف نفسه الاقذاع فيه ، فلما انتقل إلى بغداد واتصل بملوكها وعظمائها عافت نفسه الهجاء ، وتورع عنه قبل أن يتورع عن الغزل ونحوه ، مما تورع عنه بعدزهده ، فلم يقله إلا وهومضطر إليه ، ولم يكن مثل هجائه بالـكوفة فى الاقذاع والفحش

هجاؤه ببغداد

وقد جرت له مُهاجاةٌ مع والبة بن الْحُبَابِ ببغداد، وكان والبة هو البادىء فيها ، ولم يَهْجُهُ أبو العتاهية إلا بعد أن طلب إليه أن يَكُفَّ عن هجائه فأبى ، وذلك أن والبة قصد بغداد من الـكوفة بعد أن قصدها أبو العتاهية منها ، فلم يبلغ أَمره فيها ما بلغ أمر أبى العتاهية،فحسده على ذلك ، وأخذ يهجوه و يذمه فى شعره،وقدحدَّث

محمد بن عمر الجُرْجَانِيُّ قال : رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبى فقال له : إن والبة بن الحباب قد هجانى ، ومن أنا منه ؟ أنا جرّارٌ مسكين ، وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه ، فأحب أن تكلمه أن يُمْسِكَ عنى ، فكلم أبى والبة فلم يقبل ، وجعل يشتم أبا العتاهية ، فتركه ، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل فى حاجته ، فأخبره بما رَدَّ عليه والبة ، فقال لأبى : لى الآن عليك حاجة ، قال وما هى ؟ قال : لا تكلمنى فى أمره ، فقال : هذا أول ما يجب لك ، فقال أبو العتاهية يهجوه :

أوَالِبُ أنت فى العربِ ... كمثل الشِّيصِ فى الرُّطَبِ
هَلُمَّ إلى الموالى الصِّيـ ... ـدِ فى سَعَةٍ وفى رَحَب
فأنت بنا لَعَمْرُ اللّـ ... ـه أشبه منك بالعرب (١)
غضبتُ عليك ثم رَأَيْـ ... ـتُ وجهك فَانْجَلَى غضبى
لِما ذَكَّرتنى من لَوْ ... نِ أجدادى ولون أبى
فَقُلْ ما شئتَ أقبلْهُ ... وإن أطنبتَ فى الكذب

---

(١) هذا البيت قاطع فى أن أبا العتاهية من الموالى لا من العرب ، وقد ذكرنا فى ترجمته أن بنيه كانوا ينفون ذلك ، ويزعمون أنهم من عنزة

فقد أخبِرْتُ عنك وعن · أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به · مُصاصٌ غير مُؤْتَشِب
أتانا من بلاد الرّو · مِ مُعْتَجِراً على قتب
خفيف الْحاذِ كالصَّمصا · مِ أطْلَسَ غير ذى نَشَب
أوَالبُ ما دهاك وأنـ · ـت فى الأعراب ذو نسب
أراك وُلِدْتَ بالمرِّيـ · ـخِ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أُقَيْشِرَ الْخَدَّيْـ · ـنِ أزرقَ عارِمَ الذَّنَب
لقد أخطأتَ فى شتمى · فخبِّرْنِى ألم أُصِب

وقال فيه أيضا غير ذلك ، فبلغ والبة ، فجاء أبى فقال: قد كلمتنى فى أبى العتاهية ، وقد رغبت فى الصلح ، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه ، فقال له والبة فما الرأى عندك ؟ قال تنحدر إلى الكوفة، فركب زَوْرَقًا ، ومضى من بغداد إلى الكوفة

فهذا مقدار ما بلغه هجاء أبى العتاهية فى والبة ، وهو مع هذا هجاء معتدل لا فحش فيه ، ولكنه هجاء مؤلم مُوجِع ، أما هجاء والبة فكان ضعيفا سخيفا لا يقوى على هذا الهجاء ، وكان مع هذا بالغا فى الفحش والقبح ، وهذا مثال منه:

قُلْ لابن بائعة الْقِصارِ · وابن الدّوارقِ والْجِرارِ

تهوى عُتَيْبَةَ ظاهراً وهواكَ فى إيرِ الْحِمَار

تهجو مواليك الأُلَى فكّوكَ من ذُلِّ الإسار

وإن الشعر لأعلى مقاما من هذا القبح الذى أتى به فيه، وإنه لينال به من نفسه قبل أن ينال ممن يهجوه

هجاؤه بالكوفة

وقد هجا أبو العتاهية بالكوفة عبدالله بن معن بن زائدة الشيبانى، فكان هجاء فاحشا مقذعا، يلائم حاله فى تلك البيئة التى كان يعاشرها بالكوفة، وكان سبب هجائه له فيما حدث به أبو سويد عبد القوى بن محمد بن أبى العتاهية أنه كان فى حداثته يهوى امرأة نائحة من أهل الحيرة لها حسن وجمال، يقال لها سعدى، وكان عبدالله بن معن يهواها أيضا، وكانت مولاة لهم، فتهدد عبدالله أبا العتاهية ونهاه أن يعرض لها، فكان هذا سببا فى هجائه له، وقد سلك فيه أبو العتاهية مذهبا غريبا جعل فيه عبد الله بن معن امرأة، وسلبه صفة الرجولة، وبنى على ذلك فى هجائه ما بنى من فحش القول، وقبيح الوصف، حتى ضج منه بنو معن، فذهبوا إلى مندل وحيان ابنى على العَنَزِيَّيْنِ الفقيهين، وكانا من سادات الكوفة، فقالوا لهما: نحن بيت واحد وأهل، ولا فرق بيننا، وقد أتانا من مولاكم هذا ما لو أتانا من بعيد الولاء لوجب أن تردعاه، فأحضرا أبا العتاهية فلم يكن يمكنه الخلاف عليهما، فأصلحا بينه

و بين عبد الله و يزيد ابنى معن ، وضمنا عنه خلوص النية،وعنهما ألا يتبعاه بسوء، وكانا ممن لا يمكن خلافهما :

ومن هجائه فيه :

يا صاحِبَىْ رَحْلِىَّ لا تُكثِرَا
في شتم عبد الله من عَذْلِ
سبحانَ من خَصَّ ابن مَعْنٍ بما
أرى به من قِلّةِ العقل
قال ابن معن وجلا نَفْسَهُ
عَلَىَّ من الجلوة يا أهلى
أنا فتاةُ الحىِّ من وائلٍ
في الشرف الشامخ والنُّبْلِ
ما في بنى شيبان أهل الحِجا
جاريةٌ واحدةٌ مثلى
وَيْلِى ويالَهفى على أمْرَدٍ
يُلصِقُ منى القُرْطَ بالحِجْلِ
صافحتُهُ يوماً على خلوةٍ
فقال دَعْ كفِّى وخذ رجلى

أختُ بني شيبان مرّتْ بنا

ممشوطةً كوراً على بغل

تُكنَى أبا الفضل ويا من رأى

جاريةً تكنى أبا الفضل

قد نقطتْ في وجهها نقطةً

مخافة العين من الكُحْل

إن زرتموها قال حُجّابُها

نحن عن الزُّوَّارِ في شُغْل

مولاتُنَا مشغولةٌ عندها

بَعْلٌ ولا إذن على البعل

يا بنت معنٍ الْخَيْرِ لا تجهلي

وأين إقْصَارٌ عن الجهل

أتجلِدُ الناس وأنت امرؤٌ

تجلد في . . . . .

ما ينبغي للناس أن يَنْسُبُوا

من كان ذا جودٍ إلى البخل

يبذل ما يمنع أهل النَّدى

هذا لعَمْرِي مُنْتَهَى البذل

ما قلتُ هذا فيك إلا وقد
جَفَّتْ به الأقلام من قبلى

وقد حدث أبو عكرمة أن الرشيد كان إذا رأى عبد الله بن معن بن زائدة تمثل قول أبى العتاهية :

أختُ بنى شيبانَ مرَّتْ بنا
ممشوطةً كوُراً على بغل

ومما قاله فى هجائه بعد أن تهدده وتوعده فى مولاته سعدى :

ألاَ قل لابن معْنٍ ذا الَّـ   ذى فى الودِّ قد حَالاَ
لقد بُلِّغْتُ ما قالا   فما باليتُ ما قالا
ولو كان من الأُسْدْ   لما صال ولا هالا
فَصُغْ ما كنتَ حلَّيْتَ   به سيفك خلْخَالا
وما تصنع بالسيف   إذا لم تك قتَّالا
ولو مدَّ إلى أُذْنُيْـ   ـه كفَّيْه لما نالا
قصير الطّوْلِ والطِّيَـ   ـةِ لا شَبَّ ولا طالا
أرى قومكَ أبطالاً   وقد أصبحتَ بَطَّالا

وكان عبد الله بن معن يقول : ما لبست سيفى قط فرأيت إنسانا يلمحنى إلا ظننت أنه يحفظ قول أبى العتاهية فى ، فلذلك

يتأملني ، فأخجل ، يعني قوله (فصغ ما كنت حليت : البيتين)

وقد قال في هجاء أخيه يزيد :

بَنَى مَعْنٌ ويهدمه يَزِيدُ كذاك الله يفعل ما يريدُ
فمعن كان للحساد غمًّا وهذا قد يُسرُّ به الحسود
يزيدُ يزيدُ في منعٍ وبخلٍ وينقص في العطاء ولا يزيد

ولما اصطلح أبو العتاهية مع عبد الله عذله أناس على ما فرط منه ، ولامه آخرون على صلحه معه ، فقال :

ما لعُذَّالي ومالي أمروني بالضلالِ
عذلوني في اغتفاري لابن مَعْنٍ واحتمال
إن يكن ما كان منه فَبِجُرمي وفعالي
أنا منه كنتُ أسْوَا عشرةً في كل حال
قل لمن يَعجَبُ من حسن رجوعي ومقالي
رُبَّ ودٍّ بعد صدٍّ وهوى بعد تقَالي
قد رأينا ذا كثيراً جارياً بين الرجال
إنما كانتْ يميني لطمتْ مني شمالي

العتاب :

عتابه وخصائصه

يغلب على أسلوب أبي العتاهية في العتاب ما كان يغلب على

طبعه من حب الحكمة والمَثل ، فاذا عاتب جعل عتابه حكمة وموعظة، وكان عتابه أشبه شيء بالنصيحة ، ومن ذلك عتابه لصالح الشَّهْرَزُورِيِّ ، وكان بينهما صداقة ومودة ، فسأله أبو العتاهية أن يكلم الفضل بن يحيي البَرْمكيّ فى حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه فى أشباه هذا ، ولكن حَمِّلْنى ما شئت فى مالى، فانصرف عنه أبوالعتاهية، وأقام أياما لا يأتيه ، ثم كتب إليه :

مختارات منه

أَقلِلْ زيارتك الصَّديق ولا تُطِلْ
إتيانه فتلجَّ فى هجرانه

إن الصـديق يلج فى غشيانه
لصديقه فَيَملُّ من غشيانه

حتى تراه بعـد طولِ مسرةٍ
بمكانه مُتبرِّماً بمكانه

وأقلُّ ما يلقى الفتى ثقلاً على
إخوانه ما كفَّ عن إخوانه

وإذا توانى عن صيانة نفسه
رُجلٌ تنقَّصَ واستخفَّ بشأنه

فلما قرأ الأبيات قال : سبحان الله ! أتهجرنى لمنعى إياك شيئا

تعلم أني ما ابتذلت نفسي له قطُّ ، وتنسى مودَّتي وأُخُوَّتي ، ومِنْ دُونِ ما بيني و بينك ما أوجب عليك أن تعذرني . فكتب اليه أبو العتاهية :

أهلُ التَّخَلُّقِ لو يدوم تَخَلُّقٌ
لسكنتُ ظلَّ جناحِ من يتخلَّقُ
ما الناسُ في الامساك إلا واحدٌ
فبأيهم إنْ حصَّلُوا أتعلق
هـذا زمانٌ قـد تعوّد أهلُهُ
تِيهَ الملوكِ وفعل من يتصدق

أي يطلب الصدقة ، وهذا كما قال في بيت آخر :

هذا زمانٌ ألحّ الناسُ فيه على
تيـه الملوكِ وأخلاق المساكين

فلما أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى ، وحدثه بالحديث ، فقال له : لا والله ما على الأرض أبْغَضُ إلى من إسْدَاء عارفة إلى أبي العتاهية ، لأنه ليس ممن يظهر عليـه أثر صَنِيعَةٍ ، وقد قضيت حاجته لك . فرجع صالح إلى أبي العتاهية بقضاء حاجته ، فقال يشكره :

جزى الله عنِّى صالحا بوفائه

وأضعفَ أضعافاً له فى جزائه

بلوتُ رجالاً بعده فى إخائهم

فما ازددتُ إلا رغبةً فى إخائه

صديقٌ إذا ما جئتُ أبغيه حاجةً

رجعتُ بما أبغى ووجهى بمائه

ولم يكن أبو العتاهية كما قال الفضل بن يحيى ممن لا يظهر عليه أثر الصنيعة ، ولكنه كان يعامل أولئك العظماء معاملة النِدِّ للنِدِّ ، ولا يعاملهم بما اعتاده من أولئك الشعراء المُسْتَجْدِين من ضروب التَمَلُّقِ والخضوع، وليس هذا إلا تحاملا من الفضل على أبى العتاهية، وكان البرامكة يكرهون منه اتصاله بالفضل بن الربيع،وهومنافسهم السياسى فى دولة الرشيد ، وقد صحبه أبو العتاهية صحبة طويلة ، ثم حدث ما قطع بينهما بسبب هؤلاء البرامكة بعد أن نكبهم الرشيد، وصاروا بحيث لا يرجو أحد منهم صنيعة ، وذلك أن الفضل مازال من أميل الناس إلى أبى العتاهية ، حتى رجع من خراسان بعد موت الرشيد ، فدخل عليه أبو العتاهية فاستنشده ، فأنشد:

أفنيت عُمرك إدباراً وإقبالا

تبغى البنين وتبغى الأهل والمالا

المَوْتُ هَوْلٌ فَكُن ما شئتَ مُلْتَمِسًا
من هوله حيلةً إن كنت محتالا

ألم تر الملكَ الأمسيَّ حين مضى
هل نال حيٌّ من الدنيا كما نالا

أفناهُ من لم يزل يُفنى القرون فقد
أضحى وأصبح عنه المُلْكُ قد زالا

كم من ملوكٍ مضى رَيْبُ الزمانِ بهم
فأصبحوا عِبراً فينا وأمثالا

فاستحسنها الفضل ، وطلب إليه أن يعود اليه فى وقت فراغه ليقعد معه ، ويأنس به ، فلما كان يوم فراغه صار اليه ، فبينما هو مقبل عليه يستنشده ، ويسأله فيحدثه ، إذ أنشده :

ولّى الشبابُ فما له من حيلةٍ
وكسا ذُؤابتى المشيبُ خِمارا

أين البرامكةُ الذين عهدتُهم
بالأمس أعظمَ أهلها أخطارا

فلما سمع الفضل ذكر البرامكة تغيّر لونه ، ورأى أبو العتاهية الكراهية فى وجهه ، فما رأى منه خيرا بعد ذلك . وقد حدث أبو

العتاهية بهذا الحسن بن سهل فى دولة المأمون ، فقال له : لئن كان ذلك ضَرَّك عند الفضل بن الربيع ، لقد نفعك عندنا ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب ، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم ، فلم يزل يقبلها دَارَّةً إلى أن مات

ومن عتاب أبى العتاهية ما كان منه لأحمد بن يوسف ، وكان صديقا له ، فلما خدم المأمون وخُص به ، رأى منه جَفْوَةً ، فكتب اليه :

أبا جعفرٍ إنّ الشريف يشينه
تتايهُهُ على الأخلاء بالوَفرِ
ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى
وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
فإنْ نلت تيهاً بالذى نلت من غنى
فإن غناى فى التجمُّل والصبر

الاستعطاف

الاستعطاف

ومن شعر أبى العتاهية فى الاستعطاف ما كتب به إلى الرشيد وهو فى سجنه :

يا رشيد الأمر أرشدنى إلى
وجه نجحى لاعدمت الرشدا
لا أراك الله سوءاً أبداً
ما رأت مثلك عينٌ أحدا
أعن الخائف وارحم صوته
رافعاً نحوك يدعوك يدا
وابلائى من دعاوى أملٍ
كلما قلت تدانى بعدا
كم أمنَّى بغدٍ بعد غدٍ
ينفدُ العمرُ ولم ألق غدا

الزهد والحكمة :

زهدياته وخصائصها — أكثر أشعار أبى العتاهية فى الزهد والحكمة والمثل ، وهى الأشعار التى بذل فيها كل جهده ، وأربى فيها على الشعراء السابقين واللاحقين ، ونظم فيها ما استفاده من أهل العلم ، من السنن وسير السلف الصالح ، وماجرى من الحكم على ألسنة هذه الأمة وغيرها من الأمم

مختارات منها — وهذه نبذ من عيون شعره فى هذا الباب ، من الزهد ونحوه :

قال موسى بن صالح الشهرزورى : أتيت سَلْماً الخاسر فقلت

له : أنشدنى لنفسك ، فقال : لا ، ولكن أنشدك لأشعر الجن والانس ، لأبى العتاهية ، ثم أنشدنى قوله :

سكنٌ يبقى له سكنُ ما بهذا يؤذن الزمنُ

نحن فى دار يخبرنا ببلاها ناطق لَسِن

فى سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتَهِن

كل نفس عندِ ميتتها حظها من مالها الكفن

إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وقال الفضل بن الربيع لأبى العتاهية : يا أبا إسحاق ، ما أحسن بيتين لك وما أصدقهما ! قال وما هما ؟ قال قولك :

ما الناس إلا للكثير المال أو

لمسلّط ما دام فى سلطانهِ

فاذا الزمان رماهما ببلية

كان الثقات هناك من أعوانه

وقال عبدالله بن الحسن بن سهل : قلت لأبى العتاهية أنشدنى من شعرك ما يستحسن ، فأنشدنى :

ما أسرع الايام فى الشهر

وأسرع الأشهر فى العمر

ليس لمن ليست له حيلة

موجودة خير من الصبر

فاخطُ مع الدهر اذا ما خطا

واجر مع الدهر كما يجرى

من سابق الدهر كبا كبوة

لم يُستَقَلْهَا آخر الدهر

وقال أبو تمام الطائى لأبى العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهى قوله:

الناس فى غفلاتهم ورحا المنية تطحن

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى

وأن الغنى يخشى عليه من الفقر(١)

وقوله فى موسى الهادى :

ولما استقلُّوا بأثقالهم

وقد أزمَعُوا للذى أزمعُوا

قرنتُ التِفاتى بآثارهم

وأتبعتهم مُقْلةً تدمع

(١) أنظر ص ١٤١

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عفواً

أليس مصير ذاكَ إلى زوال

والبيت الأول من قصيدته :

يأيُّها المُتَسَمِّنُ قل لى لمن تَتَسَمَّنُ
سَمَّنْتَ نفسك لِلْبِلَى وبَطِنْتَ يا مستبطن
وأسأت كل إساءة وظننت أنك تحسن
مالى رأيتك تطمئـ ـن إلى الحياة وتركن
يا ساكن الحجرات ما لك غير قبرك مسكن
اليوم أنت مُكاثِرٌ ومفاخر تتزيَّن
وغداً تصير إلى القبو ر مُحَنَّطٌ ومكفن
أحدث لربك توبة فسبيلها لك ممكن
واصرف هواك لخوفه مما تُسِرُّ وتعلن
فكأن شخصك لم يكن فى الناس ساعة تدفن
وكأن أهلك قد بكوا جزعا عليك وَتَنَّنوا
فاذا مضت لك جمعة فكأنهم لم يحزنوا
والناسُ فى غفلاتهم ورحا المنية تطحن

ما دُونَ دائرة الرّدى حِصْنٌ لمن يتحصن

والبيت الأخير من قصيدته :

تعِي نفسى إلى مر الليالى

تُصرِّفُهُنَّ حالا بعد حالِ

فمالى لستُ مشغولاً بنفسى

وما لى لا أخاف الموتَ مالى

لقد أيقنتُ أنى غير باق

ولكنى أرانى لا أُبالى

ومالى عِبرَةٌ فى ذكر قوم

تَفَانَوْا ربما خطروا ببالى

كأن مُمَرِّضى قد قام يمشى

بنعشى بين أربعة عِجَال

وخلفى نسوةٌ يبكين شَجْواً

كأنَّ قلوبهن على مَقال

سأقنع ما بقيت بقوت يوم

ولا أبغى مكاثرة بمال

تعالى الله يا سَلْمَ ابن عمرو

أذلَّ الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تُساق إليك عفواً
أليس مصير ذاك إلى زوال
فما ترجو بشىء ليس يبقى
وَشِيكاً ما تغـيره الليالى
وحقك كلُّ ذا يفنى سريعاً
ولا شىءٌ يدُوم مع الليـالى
خـبرتُ الناس قرناً بعد قرن
فلم أر غـير ختَّال وقال
وذقت مرارة الأشياء طراً
فما طعم أمَرُّ من السؤال
ولم أرَ فى الأمور أشدَّ وقعاً
وأصعب من معاداة الرجال
ولم أر فى عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على الـكمال

ومن أحسن ما قاله فى الزهد القصيدة التى ذكرت فيما سبق أنه قالها حين قطع أمله من عتبة[1] ولكن الخطاب فيها صريح فى أنه للدنيا لا لها :

---

(١) أنظر ص ٦٠

قطّعتُ منكِ حبائل الآمال

ووحَطَطتُ عن ظهر المطىِّ رحالى

ويئستُ أن أبقى لشىء نِلتُ مم

ا فيكِ يادُنْيا وأن يبقى لى

فوجدتُ بَرْدَ اليأس بين جوانحى

وأرحتُ من حلِّى ومن ترْحالى

ولئن يئستُ لَرُبَّ بَرْقَة خُلَّبٍ

بَرَقَتْ لذى طمع وبرقة آل

فالآنَ يادنيا عرفتك فاذهبى

يادارَ كلِّ تشتُّتٍ وزوال

والآن صار لِىَ الزمانُ مؤدِّباً

فغدا علىَّ وراح بالأمثال

ولقد أقام لِىَ المشيب نُعاته

تُفضِى إلىَّ بمَفْرِقٍ وقذال

ولقد رأيتُ الموتَ يُبرِق سيْفَهُ

بيد المنيَّة حيث كنتُ حيالى

واذا اعتبرتُ رأيتُ خَطب حوادثٍ

يَجْرين بالأرزاقِ والآجال

وإذا تناسبت الرجالُ فما أرى
نسباً يُقاس بصالح الأعمال
وإذا بحثتُ عن التقىِّ وجدتُهُ
رجلاً يصدِّق قوله بفعال

إلى أن قال:

يأيها البَطِرُ الذى هو فى غدٍ
فى قبره متفرِّق الأوصال
حذفَ المُنىَ عنه المشمِّرُ فى الهدى
وأرى مناك طويلة الأذيال
ولَقلَّ ما تلقى أغَرَّ لنفسه
من لاعبٍ مَرِحٍ بها مختال
ياتاجر الغىِّ المُضِرِّ برشده
حتى متى بالغىِّ أنت تغالى
مالى أراك لِحرٍّ وجهك مخلقا
أخلقتِ يادنيا وجوه رجال
قستُ السؤالَ فكان أعظمَ قيمةً
من كل عارفةٍ جرتْ بسؤال

كن بالسؤال أشدَّ عقدَ ضنانةٍ
ممن يضن عليك بالأموال
وصُنِ المحامدَ ما استطعتَ فإنها
فى الوزنِ ترجحُ بذْلَ كل نوال
وإذا ابتُليتَ ببذل وجهك سائلا
فابذُلْهُ للمتكرِّم المفضال
وإذا خشيتَ تعذُّراً فى بلدةٍ
فاشدُدْ يديك بعاجل الترحال
واصبر على غِيَرِ الزمان فإنما
فرَجُ الشدائد مِثْلُ حَلِّ عِقال

وروى أنه جلس فى دكان وراق ، فأخذ كتابا فكتب على ظهره على البديهة :

ألاَ إننا كلنا بائدُ ... وأىُّ بنى آدمٍ خالدُ
وبَدْءهمُ كان من ربهم ... وكُلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجبًا كيف يُعصى الإلـ ... ـهَ أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكةٍ ... وفى كل تسكينةٍ شاهد
وفى كل شىء له آيةٌ ... تدلُّ على أنه الواحد

ولما انصرف اجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبيات فقال :
لمن هذا؟ فقيل له : لأبى العتاهية ، فقال : فلوددت أنها لى بجميع شعرى
وقال أيضا :

أبقيتَ مالكَ ميراثاً لوارثِهِ
فليت شِعْرِى َ ما أبقى لكَ المالُ
القومُ بعدكَ فى حالٍ تسرُّهُمُ
فكيفَ بعدهمُ دارتْ بكَ الحالُ
ملّوا البكاءَ فما يبكيكَ من أحدٍ
واستحكمَ القيلُ فى الميراثِ والقالُ

أخذه من قول الحسن : يا ابن آدم ، أنت أسير فى الدنيا ،
رضيت من لذتها بما ينقضى ، ومن نعيمها بما يمضى ، ومن ملكها
بما ينفد ، فلا تجمع الأوزار لنفسك ولأهلك الأموال ، فإذا مت
حُمِّلتِ الأوزارُ لنفسك ولأهلك الأموال

وقال فى الصاحب الصادق :

وإنى لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ
يروقُ ويصفُو إن كَدَرْتُ عليهِ
عذيرى من الانسانِ لا إن جَفَوْتُهُ
صفالى ولا إن كنتُ طوْعَ يديه

وقال وهو من غرر شعره :

نام الخلى لأنهُ خلْوُ ... عمَّنْ يؤرِّقُ عينهَ الشَّجْوُ

ما إن يطيب لذى الرِّعا ... يةِ للأيام لا لعبٌ ولا لَهْوُ

إذ كان يُسرِفُ فى مسرته ... فيموتُ من أعضائه جُزْوُ

وإذا المشيب رمى بِوَهْنَتِهِ ... وهَتِ القُوى وتقاربَ الخطو

وإذا استحالَ بأهله زمنٌ ... كثُرَ القَذَى وتكدَّر الصفو

قال اسحاق الموصلى : أنشدنى إسحاق بن مخلد الرازى لأبى العتاهية هذه الأبيات ، فقلت ما أحسنُهَا ، فقال : أهكذا تقول ؟ حقا إنها روحانية بين السماء والأرض

وقال وقد أخذه من قول بعض الحكماء : حلوالدنيامرالآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة ، وإن كل كلام فى غير ذات الله لغو ، وكل فكرة لغير الله سهو ، وكل عمل لغير الله لهو :

الصمتُ فى غير فكرةٍ سهوُ

والقولُ فى غير حكمةٍ لَغْوُ

ومن بَغى السَّرْوَ فالتَّنَزُّهُ عن

حُبِّ فُضُولِ الدنيا هو السرو (١)

---

(١) السرو هو المروءة فى شرف

تَسَلَّ عنها فإنها لَعِبٌ
تفنى سريعاً وإنها لَهْوُ
وإنّ حُلْوَ الدُّنيا غداً غير ما
شَكَّ لمرٌّ ومُرُّها حلو

مزدوجته ذات الأمثال

ومن بدائعه فى الحكمة أُرْجُوزَتهُ المزدوجة ، التى سماها ذات الأمثال ، وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال أن فيها أربعة آلاف مثل ، وهى تجديد عظيم فى الشعر العربى بما بلغته من هذا الطول ، وبقافيتها المرنة التى مكنته من المضى فيها إلى هذا الحد ، ولعلها أول محاولة للتخلص من قيد القافية فى الشعر العربى ، وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى : تذكروا يوما شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يا للشبَابِ المَرِحِ التَّصَابِى روائحُ الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال انظروا إلى قوله (روائح الجنة فى الشباب) فان له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل ، وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله

أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى منها هذه الأبيات :

حَسْبُكَ ممـــا تبتغيه القوتُ

ما أكثر القوتَ لمن يموتُ

الفقر فيما جاوزَ الكَفافَا

من اتَّقَى الله رجا وخافا

هى المقادير فلُمْنِي أو فذرْ

إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ

لكل ما يؤذى وإن قلَّ ألمْ

ما أطولَ الليْلَ على من لم يَنَمْ

ما انتفع المرء بمثل عقلِهِ

وخـــير ذخرِ المرء حسنُ فعلهِ

إن الفسادَ ضدُّهُ الصلاحُ

ورب جدٍّ جرهُ المزاحُ

من جعل النمَّامَ عيناً هلكَا

مبلغكَ الشر كباغيه لكَا

إن الشبابَ والفراغَ والْجِدهْ

مفسدةٌ للمرء أىّ مفسده

يغنيك من كل قبيح تركهُ
يرتهن الرأيَ الأصيل شكُّهُ

ما عيشُ من آفتهُ بقاؤهُ
نَغَّص عيشاً كُلَّهُ فناؤهُ

يارُبَّ من أسخطنا بجهده
قد سرنا الله بغير حمدِهِ

ما تطلع الشمس ولا تغيبُ
إلا لأمر شأنُهُ عجيبُ

لكل شيء معدنٌ وجوهرُ
وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبرُ

من لك بالْمَحْضِ وكُلٌّ مُمْتَزِجْ
وساوِسٌ والصدْرُ منه تعتلِجْ

وكُلُّ شيء لاحقٌ بجوهرِهْ
أصغرُه متصلٌ بأكبرِهْ

ما زالت الدنيا لنا دارَ أذَى
ممزوجةَ الصَّفْوِ بألوان القذَى

الخير والشرُّ بها أزواجُ
لذا نِتَاجٌ ولذا نِتَاجُ

من لك بالمحض وليس محضُ

يخبثُ بعضٌ ويطيب بعض

لكل إنسانٍ طبيعتانِ

خير وشر وهما ضدانِ

إنك لو تستنشقُ الشحيحَا

وجدتهُ أنتنَ شيء ريحا

والخير والشر إذا ماعُدَّا

بينهما بوْنٌ بعيدٌ جِدَّا

عجبتُ حتى غمني السكوتُ

صرت كأني حائرٌ مبهوتُ

كذا قضى الله فكيف أصنعُ

الصمْتُ إن ضاق الكلام أوسعُ

قال أبو الفرج : وهي طويلة جدا ، وإنما ذكرت هذا الكلام منها ، حسبما استاق الكلام من صفتها

مآخذه

المتحاملون عليه

قد ذكرنا أن من الناس من كان لا ترضيه طريقة أبى العتاهية فى إيثاره سهولة الشعر على غيرها ، فيخرجه بذلك من زمرة فحول الشعراء فى عصره ، ولقد أدينا فى الفصول السابقة بعض ما يجب علينا لهذا الشاعر العظيم ، ولم نعبأ بذلك التحامل عليه فى شعره وزهده وعقيدته .

وسنذكر فى هذا الفصل بعض ما أخذ عليه فى شعره ، وعُد من عيوبه ، ولم يسلم شاعر فى القدماء والمحدثين من أشياء تؤخذ عليه ، وسيئات تذكر بجانب ماله من المحاسن

إفراطه أحيانا فى السهولة

فمما أخذ عليه أنه كان أحيانا يفرط فى السهولة التى آثرها فى الشعر ، وينزل فيها إلى اللغة الدارجة بين الناس ، والذى أراه فى هذا أنه يجب أن يتوسط فى الشعر بين اللغة الدارجة ، وبين لغته القديمة المتكلفة ، وقد أخذ عليه فى ذلك قوله :

ألا يا عُتْبَةُ الساعهْ أموت الساعةَ الساعهْ

وقد قيل لأبى بَرْزَةَ الأعرابى ، أحد بنى قيس بن ثعلبة :

أيعجبك هذا الشعر ؟ فقال : لا والله ما يعجبنى ، ولكن يعجبنى قول الآخر :

جاء شقيق عارضا رمحه

إن بنى عمك فيهم رماحْ

هل أحدث الدهر بنا نكبة

أم هل رقَتْ أمُّ شقيق سلاح

أى نفثت فيه حتى لا يعمل شيئا

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلىُّ ، وكان ينكر على أبى العتاهية :
أنكر الرشيد علىَّ طعنى على أبى العتاهية فى شعره ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هو أطبع الناس ، ولكن ربما تحرَّف ، أى شىء من الشعر قوله :

هو اللهُ هو اللهُ ولكن يغفر اللهُ

وقال أبو عبيد الله المرزبانى : ومما أنكر على أبى العتاهية من سفساف شعره قوله فى عتبة :

ولهى حبها وصيرنى

مثل جُحَى شهرة ومشخلَبَهْ

وقوله :

أيا واها لذكر الله   يا واها ويا واها

لقد طيب ذكر الله   بالتسبيح أفواها

أرى قوما يتيهون   حُشُوشاً رزقوا جاها

فما أنتن من حُشٍ   على حش إذا تاها

وإنى أرى أن هذه الأبيات الأخيرة لا يصح إنكارها ، ولا يؤخذ فيها شىء على أبى العتاهية ، لأنها لا تنزل إلى تلك اللغة التى أنكرنا نزول الشعر إليها

وقال على بن أبى المنذر العروضى : لما مات سعيد بن وهب الشاعر ، حضر أبى جنازته ، وحضرها الفضل بن الربيع ، وكان قد ظهر أيام المأمون ، فلما دفن أثنى عليه الفضل بن الربيع ، وأقبل على أبى العتاهية يحدثه أنه أودع القضاة والعدول أموالا فما وفوا له ، وأنه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به ، فقال أبى لأبى العتاهية ألا ترثيه ، قال بى ، قال أبى : ثم صرت بعد أيام إلى الفضل بن الربيع ، فأخرج إلى رقعةً فقال : اقرأ مرثية أبى العتاهية لسعيد بن وهب ، فاذا فيها :

مات والله سعيد بن وهبِ

رحم الله سعيد بن وهبِ

يا أبا عثمان أبكيت عينى

يا أبا عثمان أوجعت قلبى

فقلت : ما أدرى ما أقول ؟ فقال الفضل : أبو العتاهية بأن يرثى فى حياته أولى من سعيد بعد موته. قال الصولى وله شبيه بهذا فى محمد بن يزيد المسلمى :

قد مات خلى وأنسى محمد بن يزيد

ما الموت والله منا خلافَهُ ببعيد

قال أبو عبيد الله المرزبانى : وقوله فى مرثية عيسى بن جعفرٍ أشبه بقوله فى سعيد بن وهب مما ذكره الصولى ، وهو :

بكت عينى على عيسى بن جعفرِ

عفا الرحمان عن عيسى بن جعفر

ويمكن أن يعتذر عن أبى العتاهية فى هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله فى حديثه السائر ، ولا يريد به الشعر ، ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصبهانى فى رثائه لسعيد بن وهب عن بعض أصحاب أبى العتاهية ، قال : جاء رجل إلى أبى العتاهية ونحن عنده ، فسارّه فى شىء ، فبكى أبو العتاهية ، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعرا :

قال لى مات سعيد بن وهب   رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عينى   يا أبا عثمان أوجعت قلبى

قال فعجبنا من طبعه، وأنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا

وإنى أرجح هذه الرواية على الرواية الأولى، لورودها عمن شاهد هذا الشعر حين قاله أبو العتاهية، ولعل الفضل بن الربيع غير فيه ذلك التغيير، ورواه بذلك الشكل، ليطعن به على أبى العتاهية، وهذا بعد أن فسد ما بينهما، على ما ذكرنا فى الكلام على عتابه [1]

ضعف بعض معانيه

ومما أنكر على أبى العتاهية قوله:

حلاوة عيشك ممزوجةٌ   فما تأكل الشهد إلا بِسَمّ

فالمعنى صحيح، لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها، والعبارة غير مَرْضِيّةٍ، لأنا لم نر أحداً أكل شهداً بسَمّ، وأجود من قوله لفظا، وأصح معنى، قول ابن الرُّومِىّ:

وهل خُلَّةٌ معسولةُ الطعم تُجْتَنَى
من البِيضِ إلا حيث واشٍ يكيدها

التضمين فى شعره

وأنكر عليه أيضا قوله:

يا ذا الذى فى الحب يَلْحَى أما   والله لو كُلِّفْتَ منه كما

---

(١) أنظر ص ١٣٩

كلفتُ من حبٍّ رخيم لمَا   لُمْتَ على الحبِّ فذرني وما
ألقى فانى لستُ أدرى بما   بُليتُ إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما   أطوف فى قصرهم إذ رَمَى
قلبى غزالٌ بسهام فما   أخطا بها قلبى ولكنما
سهماه عينان له كلما   أراد قتلى بهما سلَّما

فان هذا من الشعر المضمن ، والتضمين عيب عندهم من عيوب الشعر ، وخير الشعر عندهم ما كان قائما بنفسه ، وخير أبياته ما كفى بعضه دون بعض ، مثل قول النابغة الذُّبْيانى :

ولستَ بمُسْتبقٍ أخاً لاتَلُمُّهُ   على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهذبُ

فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه ، إن قال « أى الرجال المهذب » كفاه ، وإن قال « لست بمستبق أخا لا تلمه على شعث » كفاه .

رأيى فى التضمين

وإنى لا أرى رأيهم فى عيب هذا التضمين، ولست أدرى لماذا لا نجيز فى الشعر العربى هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة ، ولا لماذا نصر على أن كل بيت فى القصيدة يجب أن يكون وحدة مستقلة بنفسها ، وقد رأينا كثيرا من أدباء عصرنا يعيب هذا على القصيدة العربية ، ويرى أنه يجب أن تكون القصيدة كلها وحدة متماسكة ، وقد كان أبو العتاهية لا يعترف بعلم العروض ، ويرى

نفسه أكبر منه ، كما قدمنا فى الموازنة بينه و بين بشار وأبى نواس [١]
فلا يصح أن يؤخذ ذلك عليه ، وهو خليق بأن يعد من حسناته ،
ويحسب له فيما أحدثه من تجديد فى الشعر وأوزانه وقوافيه .

أخذه من غيره

ومما يؤخذ عليه أنه كان أحيانا يعدو على معانى غيره ، فيصوغها
فى ألفاظ من عنده ، وقد يحسن التصرف فيها حتى يخفى أخذها ،
حدث جعفر بن الحسين المُهَلَّبِيُّ أن أبا العتاهية أنشده قوله :

يا من رأى قبلى قتيلا بكي　　من شدة الوجد على القاتل

فقال له : يا أبا إسحاق ، هذا قول صاحبنا جميل :

خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما　　قتيلا بكي من حب قاتله قبلى

فقال : هو ذاك يا ابن أخى ، وتبسم

وروى أن بشارا قال له : أنا والله أستحسن اعتذارك من
دمعك حيث تقول :

كم من صديقٍ لى أسا　　رقهُ البكاء من الحياء
فاذا تأمل لا منِى　　فأقول ما بى من بكاء
لكِنْ ذهبتُ لأرْتَدِى　　فطرفتُ عينى بالرداء

فقال له أبو العتاهية: لا والله يا أبا معاذ ، ما لذت إلا بمعناك ،

---

(١) انظر ص٢٦

ولا اجتنيت إلا من غرسك ، حيث تقول :

شكوتُ إلى الغوانى ما ألاقى   وقلت لهن ما يومى بعيدُ
فقلن بكيتَ قلتُ لهن كَلاَّ   وقد يبكى من الشوق الجليد
ولكنى أصاب سواد عينى   عُوَيْدُ قَذًى له طرف حديد
فقلن فما لدمعهما سواء   أكلتا مقلتيكَ أصاب عود

وهذه كلها هنات لا تعيب شعر أبى العتاهية ، وما هى إلا قطرات فى بحر ، فلا تؤثر فيه بشىء

ما جمع من شعره وما ضاع منه

هذا وقد كان أبو العتاهية أحد ثلاثة شعراء لم تمكن الأحاطة بشعرهم لكثرته ، وثانيهم بشار بن برد ، وثالثهم السيد الحميرىُّ ، وكان أبو العتاهية أكثرهم شعرا ، ويوجد الآن من شعره ديوان مطبوع فى جزءين . أولهما فى الزهد ، وثانيهما فى الأغراض الأخرى ، وقد جمعه أحد القُسُوسِ اليَسُوعِيِّينَ ، نقلا عن رواية النَّمَرِىِّ ، و كتب مشاهير الأدباء ، مثل الأصبهانِى ، والمبرّد ، وابن عبد ربه ، والمسعودى ، والمَاوَرْدِى ، والغزالى ، وغيرهم ، وقد طبع فى مدينة بيروت سنة ١٣٠٥ هـ ، ١٨٨٦ م

فهرس الكتاب

الصفحة - الموضوع

الصفحة - الموضوع

خطأ وصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١	١٠	نقث	نفث
٣٠	١	فوحه	فوجه
٣٦	٨	حنى	خبى
٣٦	٨	تهى	تعدى
٧٥	٧	المأوون	المأمون
٨١	١٥	المليك	الملك
٨٦	١٥	بين	بن
٨٨	١٧	لك مالك	لك من مالك
٩٢	١٧	الانكاو	الانكار
١١٣	٧	أيا موت	ألا يا موت
١٢٨	١٥	للجديديدين	للجديدين
١:٧	١٥	ذ كرت	روى
١٥٦	١	لمحض	بالمحض

